الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع السكرداني عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٥٦٧٦٩١/٥٦٧٦٦٧

العدد ٣٦٧ — الثلاثاء ١٣ من صفر سنة ١٣٦٣ — ٨ من فبراير سنة ١٩٤٤ — السنة السادسة

فهرس العـــــــدد

صفحة

١ جمال الدين الأفغاني ... : للأستاذ أحمد أمين بك ...

٥ في حظه شاعر ... ... : للدكتور أحمد زكي بك ...

٩ الرواية الأدبية في الأمانى : للدكتور شوقي ضيف ...

١١ سيرة عنترة ... ... : للدكتور فؤاد حسنين ...

١٣ لعب القدر ... ... : للأستاذ محمود الدسوقي ..

١٦ القاضي الفاضل ... ... : للدكتور عبد اللطيف حمزة

١٨ إلى عم : في الآثار السلامة : للأستاذ أحمد محمد شاكر

٢١ سندباد مصري ، وسندباد فرنسي — تتمة ... ... : « سيد قطب ...

زعماء الإصلاح الإسلامي في القرن التاسع عشر :

١ — جمال الدين الأفغاني

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حادثان هامان حدثا في السنين الثلاث التي كان فيها « السيد » في باريس ، أحدهما اتصاله بالفيلسوف الشهير « رينان » وإعجاب كل منهما بالآخر ودخولهما معاً في معركة — وإن لم تكن حامية — حول الإسلام والعرب ؛ وقد فتحت صدرها لهذه المعركة جريدة « الديبا » الفرنسية الشهيرة .

فقد ألقى الأستاذ « رينان » في السربون محاضرة دارت حول نقط ثلاث : (١) خطأ المؤرخين في قولهم علوم العرب وفنون العرب وتمدن العرب وفلسفة العرب مع أن هذه الأشياء نتاج الأمم غير العربية أكثر منه نتاجاً للأمة العربية ، فالتمدن أكثره من نتاج الفرس والفلسفة أكثرها من نتاج النصارى النسطوريين والوثنيين الحرانيين . والفلاسفة الذين ظهروا في دولة الإسلام كالكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد لم يكن منهم من العرب إلا الكندي ؛ فنسبة الحضارة والمدنية والعلم والفلسفة إلى العرب خطأ ، وعدم دقة في التعبير . (٢) أن الإسلام لا يشجع على العلم والفلسفة والبحث الحر ، بل هو عائق لها ، بما فيه من اعتقاد في الغيبيات وخوارق العادات والإيمان التام بالقضاء والقدر . ومن اشتغل بالفلسفة من المسلمين اضطهد أو أحرقت كتبه أو كان في حماية خليفة أو أمير ، مؤمن في الظاهر غير متدين في الباطن ، ومع ذلك فما وصل إليه هؤلاء في الفلسفة ليس له قيمة كبيرة فهو ليس إلا فلسفة اليونان مشوهة ، والفلسفة التي أخذناها عن المسلمين في اسبانيا كانت فلسفة رديئة الترجمة ، مشوهة الأصل لم نستفد منها الفائدة الحقة إلا بعد ترجمتها ترجمة جديدة من منابعها الأصلية . ومع هذا يقول : « إن في دين الإسلام تعاليم ومبادئ عالية القيمة رفيعة المقام ، وما دخلت في حياتي مسجداً من مساجد المسلمين إلا شعرت

بجاذبية نحو الإسلام بل وتأسفت أن لا أكون مسلماً ... ولكنه حجب العقل عن التأمل في حقائق الأشياء ... وعقول أهل البلاد الإسلامية قاصرة ، وما يتميز به المسلم هو بغضه للعلوم واعتقاده أن البحث كفر ، وقلة عقل لا فائدة فيه . (٣) أن العنصر العربي بطبيعته أبعد العقول عن الفلسفة والنظر فيها ؛ فالزمن الذي كان يسود فيه العنصر العربي — وهو عهد الخلفاء الراشدين — لم تكن فيه فلسفة ، ولم يظهر البحث العلمي ولا الفلسفة إلا حين انتصرت الفرس ونصروا العباسيين على الأمويين وسلموهم زمام الملك ، ونقلوا الخلافة إلى العراق مهد التمدن الفارسي القديم .

وختم محاضرته بالإشادة بقيمة العلم ودعوة الأمم كلها شرقية وغربية إلى الهجوم عليه « فالعلم روح كل هيئة اجتماعية وبه تتقدم الأمم وبه يتحقق العدل وبه يستخدم العقل القوة ... وهو لا يساعد إلا على التقدم الإنساني على حرمة الإنسان وحريته » .

نشرت هذه المحاضرة في جريدة « الدبا » فأثارت خواطر المسلمين والمستشرقين والباحثين في شؤون المسلمين .

فكان ممن رد عليه الأستاذ « مسمر » رئيس البعثة المصرية بفرنسا إذ ذاك ، وفي رده كاد يسلم بالمسألة الأولى وهي أن المدنية العربية ليست مدنية العرب وحدهم بل مدنية الأمم المختلفة التي دخلت في الإسلام ، وفي المسألة الثانية قال إنه ليس في دين الإسلام وتعاليمه ما يمنع المسلمين من التقدم العلمي ، وقد تقدم المسلمون في عصور مختلفة ولم يمنعهم دينهم من أن يتفوقوا على المسيحيين في بعض تاريخهم ، وكل ما نع الآن يسيح في البلاد الإسلامية يشعر بنهضة الشرق وأخذه بأساليب التقدم والإصلاح من غير أن يصدهم دينهم عن ذلك . ثم قال : « ومن الغريب أنه قبل أن يلقي المسيو رينان خطبته بيومين ألقى بعض العلماء العظام أمام المحفل نفسه محاضرة اشتملت على مكتشفات العرب في علم الحياة — وقد نشرت هذه المحاضرة في المجلة العلمية — ... وهي محاضرة ترشدنا إلى حقيقة التمدن الإسلامي في القرون المتوسطة ، فلو اطلع المسيو رينان عليها وعلى ما كتبه « سديو » و « دوزي » في مؤلفاتهما عن العلوم والآداب والفنون والصنائع المنسوبة إلى العرب ، وعرف ما عملته هذه الأمة في العلم مما لا يحصى عدده بينما كانت أوروبا منغمسة في التوحش والجهالة ما نسب إلى العرب ما نسب ، وهذا العلم تقدم بمعونة الدين لا رغماً عن الدين . فإذا كان الإسلام صحح للسماطرة والمجوس واليهود في دولته بهذا التقدم العلمي الذي ذكره مسيو رينان فماذا لا يكون سبباً في حمل ملايين المسلمين على الأخذ بأسباب العلم — وأما المسألة الثالثة فلم يعرها مسيو مسمر كبير اهتمام في الرد .

وقد تحمس الشباب المسلم في باريز لمقال رينان ورد مسمر فاجتمعوا وكلفوا أحدهم حسن عاصم « حسن باشا عاصم فيما بعد » تعريب المحاضرة والرد عليه فعربهما وقال في أول [illegible] « [illegible] الذب عن الدين فرضاً على الإنسان ، وحبب الوطن من الأعيان ، اجتمع جم غفير من طلبة العلم المصريين المقيمين بفرنسا وكلفوا أحدهم السيد الفقير « حسن عاصم » بتعريب الخطبة التي ألقاها رينان ... طعناً في دين الإسلام والأمة العربية وبتعريب ما كتبه الفيلسوف الكبير صاحب الفكر الصائب المسيو مسمر ... والغرض أن نقف على الطعن والرد كلٌّ من كان على دين الإسلام أو من الأمة العربية ، ويمكنهم تفنيد كلام المسيو رينان فيفعلون إظهاراً للحق » ؛ كما عرب محمد مختار أحد طلبة العلوم الطبية بباريس المحاضرة التي أشار إليها مسيو مسمر .

بعد بضعة أسابيع من نشر محاضرة رينان رد الأستاذ جمال الدين عليه في « الدبا » أيضاً ، ولكن كان رده هادئاً في بعض نقطه ، فلعله لذلك لم يعجب حسن عاصم ولا إخوانه ، ولذلك لم يهتموا بترجمته إلى العربية أو نشره ، فقد مدح رينان على بحثه واتصافه وقال إنه استفاد من محاضرته استفادة كبيرة ، ثم قال : « إن المحاضرة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تشتمل على نقطتين أساسيتين : (١) أن الديانة الإسلامية كانت — بما لها من نشأة خاصة — تناهض العلم ؟ (٢) أن الأمة العربية غير صالحة بطبيعتها لا لعلوم ما وراء الطبيعة ولا للفلسفة .

« فأما عن النقطة الأولى فإن المرء ليتساءل ، بعد أن يقرأ المحاضرة من آخرها ، أصدر هذا الشر عن الديانة الإسلامية نفسها أم كان منشؤه الصورة التي انتشرت بها الديانة الإسلامية في العالم ، أم أن أخلاق الشعوب التي اعتنقت الإسلام أو حُملت على اعتناقه بالقوة ، وعاداتها وملكاتها الطبيعية هي جميعاً مصدر ذلك ؟ لا ريب أن قصر الوقت المخصص للمسيو رينان قد حال دون إجلائه هذه النقطة .

ثم أخذ يبين أن ما وقع للمسلمين وقع مثله في الأديان الأخرى ، « فرؤساء الكنيسة الكاثوليكية المجاهدون لم يلقوا أساتذتهم بعد كما أعلم ، وهم ما كفوا على محاربة ما يسمونه بالتدليس والضلال (يعني العلم والفلسفة) من (١) »

قال : « وأما النقطة الثانية فلا شك بعد بأن الشعب العربي خرج من حال الهمجية التي كان عليها وأخذ يتقدم في طريق التقدم الذهني والعلمي وبعد السير بسرعة لا تعادلها إلا سرعة فتوحاته السياسية ، وقد تمكن في خلال قرن من التكيف بالعلوم اليونانية والفارسية . . . فتقدمت العلوم تقدماً مدهشاً بين العرب وفي كل البلدان التي خضعت لسيادتهم ، وقد كانت روما وبزنطة المدينتين الرئيسيتين لعلوم اللاهوت والفلسفة ، بل ميمت أنوار المعارف الإنسانية كلها . . . ثم جاء الوقت الذي وقف فيه علماء هاتين المدينتين عن البحث ، وتهدمت فيه مُعَسُّهم التي أقاموها للعلم ودرجت كتبهم القيمة في طي النسيان ، وقد كان العرب في ذلك الجهل حين شرعوا يتناولون ما تركته الأمم المتمدنة ، فأحيوا تلك العلوم المندثرة ورقوها وخلعوا عليها بهجة لم تكن لها من قبل ، أو ليس هذا دلالة بل برهاناً على جهم الطبيعي للعلوم ؟

(١) وقد وقع في رده على هذه النقطة بعض جمل جريئة سنعرض لها بعد .

صحيح أن العرب أخذوا عن اليونان فلسفتهم كما أخذوا عن الفرس ما اشتهروا به . بيد أن هذه العلوم التي أخذوها بحق الفتح قد رقوها ووسعوا نطاقها ووضحوها ، ونسقوها تنسيقاً منطقياً ، وبلغوا بها مرتبة من الكمال تدل على سلامة الذوق وينطوي على التثبت والدقة النادرين . وقد كان الفرنسيون والإنجليز والألمان لا يبعدون عن رومة وبزنطة بُعْد العرب عنهما ، وكان من السهل عليهم أن يستغلوا كنوز علوم تلك المدينتين ، ولكنهم لم يفعلوا حتى جاء اليوم الذي ظهر فيه منار المدنية العربية على قمة جبال البرانس يرسل ضوءه وبهاءه على الغرب ، فأحسن الأوروبيون إذ ذاك استقبال أرسطو بعد أن تقمص الصورة العربية ، ولم يكونوا يفكرون فيه وهو في موته اليوناني على مقربة منهم . أو ليس هذا برهاناً آخر ناصعاً على جهل العرب الذهنية وجهم الطبيعي للعلوم ؟

« وبينا يسلم مسيو رينان بأن البلدان الإسلامية في خمسين سنة فقط تولت من سنة ٧٧٥ م إلى أواسط القرن التاسع عشر تحتوي علماء ومفكرين عظاما ، وأن العالم الإسلامي إذ ذاك كان يفوق العالم المسيحي في الثقافة الذهنية — إذ يقول إن أكثر الفلاسفة الذين شهدتهم القرون الأولى للإسلام كانوا كتابيي السياسيين من أصل حراني ، أو أندلسي ، أو فارسي ، أو من نصارى الشام . ولست أريد أن أحط علماء الفرس صفاتهم الباهرة ولا أن أغض الطرف عن الدور الجليل الذي لعبوه في العالم الإسلامي ، ولكن أرجو أن يسمح لي أن ألاحظ أن الحرانيين كانوا عربا ، وأن العرب لما احتلوا أسبانيا لم يفقدوا جنسيتهم بل ظلوا عربا ، وأن اللغة العربية كانت إلى ما قبل الإسلام بعدة قرون لغة الحرانيين ، وكونهم قد حافظوا على دياناتهم القديمة وهي « الصابئة » ليس معناه أنهم لم ينتموا إلى الجنسية العربية ، وقد كانت أكثرية نصارى الشام عربا نسطوريين اهتدوا بهدى النصرانية . أما ابن باجة ، وابن رشد ، وابن طفيل فلا يمكن القول بأنهم أقل عربية من الكندي بدعوى أنهم لم يولدوا في

جزيرة العرب ، وخصوصا إذا اعتبرنا أن لا سبيل إلى تمييز أمة عن أخرى إلا بلغتها .

«ثم ماذا يكون لو قصرنا نظرنا على الأصل الذي ينتمي إليه العظيم ولم نأبه للنفوذ الذي سيطر عليه ، والتشجيع الذي لقيه من الأمة التي عاش فيها ؟ لو فعلنا ذلك لقلنا إن نابليون لا ينتمي إلى فرنسا ، ولما صح لألمانيا أو انجلترا أن تدعي كلتاهما الحق في العلماء الذين استوطنوها بعد أن رحل أصولهم إليها من بلدان أخرى » .

ثم تعرض لأسباب انطفاء هذه الشعلة ، وختم رده بقوله : « إن العقل لا يوافق الجماهير ، ونتائجه لا يفقهها إلا نخبة من المتنورين ، والعلم على ما به من جمال لا يرضي الإنسانية كل الإرضاء ، وهي التي تتعطش إلى مثل أعلى ، وتحب التحليق في الآفاق المظلمة السحيقة التي لا قبل للفلاسفة والعلماء برؤيتها أو ارتيادها » .

رد عليه الأستاذ ريتان وبادله مدحا بمدح ، وإعجابا بإعجاب ، وقال : « تعرفت بالشيخ جمال الدين من نحو شهرين فوقع في نفسي منه ما لم يقع لي إلا من القليل ، وأثر في تأثيرا قويا وقد جرى بيننا حديث عميق من أجله النية على أن تكون علاقة العلم بالإسلام هي موضوع محاضرتي في السربون ... والشيخ جمال الدين نفسه خير دليل يمكن أن نسوقه على تلك النظرية العظيمة التي طالما أعلناها ، وهي أن قيمة الأديان بقيمة من يعتنقها من الأجناس ، وقد خيل إلي من حرية فكره ، ونبالة شيمه ، وصراحته — وأنا أتحدث إليه — أني أرى أحد معارفي من القدماء وجها لوجه ، وأني أشهد ابن سينا ، أو ابن رشد ، أو واحدا من أولئك المجددين العظام الذين ظلوا خمسة قرون يعملون على تحرير الإنسانية من الإسار » .

ثم قال : « ولست أرى في البحث النفيس الذي عالجه الشيخ إلا نقطة يصح أن نختلف فيها حقيقة ... فلسنا بالتأكيد ننكر ما لرومة على تاريخ الإنسانية من نفوذ ، ولا ما كان للعرب من نفوذ ، ولكن هذه التيارات الإنسانية العظيمة في حاجة إلى تحليل ؛ إذ ليس كل ما كتب باللاتينية يزن تاج شهرة روما ، ولا كل ما كتب باليونانية من عمل اليونانيين ، ولا كل ما كتب بالعربية نتاج عربي ، ولا كل ما نشأ في بلد مسيحي من تأثير المسيحية ، ولا كل ما ظهر في البلدان الإسلامية من ثمار الإسلام ...

«لقد خالني الشيخ غير منصف في أني لم أوف الكلام حقه ، ولم أقل في المسيحية ما قلته في الإسلام ، وأن الاضطهاد بين المسيحية لا يقل عما كان بين المسلمين ، وهذا قول حق ؛ فجاليليو لم يلق من الكاثوليك خيرا مما لقيه ابن رشد من المسلمين ... وإذا كنت لم أطل القول في هذه الحقيقة فلأن آرائي في هذا الشأن معروفة لا حاجة بي إلى تكريرها على مسمع محفل علم بكل أعمالي وآرائي ... ولست أريد من المسيحي ترك عقيدته المسيحية ولا من المسلم ترك الإسلام ؛ ولكن أريد من المسيحيين والمسلمين المتنورين أن يهتموا بالعلم اهتماما لا تعوقه العقيدة ، وقد تم هذا في نصف البلدان المسيحية ونرجو أن يتم مثله في الإسلام . وإن يوما يتم ذلك فيه لما أرحب به أنا والشيخ وعلى رأسه جميعا » .

[illegible] رأيه الذي قاله في المحاضرة ثم ختم مقاله بقوله : [illegible] أن الشيخ جمال الدين قد زودني بطائفة من الآراء الهامة تبنى على نظريتي الأساسية وهي أن الإسلام في النصف الأول من وجوده لم يحل دون استقرار الحركة العلمية في الأراضي الإسلامية ، ولكنه في النصف الثاني خنق الحركة العلمية وهي في حظيرته فكان هذا من سوء حظه » (١) .

وهذه النتيجة الأخيرة — من غير شك — فيها كثير من التعديل لآراء رينان السابقة ، وهي تؤدي حتما إلى أن ذلك ليس من طبيعة الإسلام ، ولو كان من طبيعته ما شجع الحركة العلمية في أوله ولا آخره .

وإلى هنا أسدل الستار من هذه الرواية التي سيعاد تمثيلها — على وجه أشد — بين مسيو هانوتو والشيخ محمد عبده . وما أقوى الردود ! ولكن أقوى منها رد المسلمين عليها

(١) لخصنا هذه المقتبسات — من ترجمة حسن باشا عاصم وترجمة رد السيد جمال الدين ورد رينان — من مجموعة أعارنا إياها صديقنا الأستاذ مصطفى عبد الرازق باشا مشكورا .

في حفلة شاي

للدكتور أحمد زكي بك

طرقتُ باب الدار ، أو بالأحرى دقت الجرس عند بابها ، فلم ألبث أن انفتح الباب لي عن غلام جمع بين ثلاثة ألوان : السواد في وجهه ويديه ، والبياض في عمامته وقفطانه ، ثم حمرة في حزامه وحذائه ، فكان منظراً زاد في جماله وسامةُ هذا الوجه ، ثم ابتسامةٌ كشفت عن لؤلؤ أسنان تنفسُها عليه الأواسي الحسان . ابتسم الخادم الغلام تحيّة ، ولكنه ابتسم لا شك أكثر لما أحدث مرأى هذا الزيّ في نفسي ، أو ما توقع أنه يُحدثه ؛ لا سيما تلك العمامة وذاك الحذاء الأحمر يلبسهما الصبيّ قبل أن يبلغ الحلم .

ومدّ إليّ يديه يطلب طربوشي و«البلطو» ، وكان لابد مستغرقاً يفكّر في حاله هو ، فلم يفطن إلى أني حضرت متجهزاً ، فلم أحمل عن رأسي غطاء ، ولا على بدني كساء . وعندها اختفت ابتسامته خجلا . فوضعت يدي خفيفةً على أم رأسه ، أو أم رأس عمامته ، وهززتُها ملاطفا كأنما أقول له لا بأس عليك مما كان .

ودخلتُ بهو الدار فاستقبلني ربّها ، واستقبلتني ربتها . وكانت الدار حافلة ، فاعتذرت عن تأخري ، واعتذرتْ زوجتي . وأخذنا نطوّف بمن نعرف في الحاضرين . وكانت وجوهها معروفة . فما لبثتُ أنْ لقيت في زاوية البهو زُمرةً يجري فيها الحديث متدفقا . ونظرتُ ، فوجدتها وجوها مألوفة ، بينها وجه صديق لا يفتأ ينصب الفيخاخ . فنادانى بملء حنجرة الجمع ، فقلت «شر في الجوالق» . قال قد حكمناك . قلت أحكمُ بعد السلام . وأعطاني السلامُ الزمن

بقيوتهم مكانة عليا في العلم والفلسفة .

* * *

وأما الحادثة الثانية فسياسية ، ذلك أن بعض ساسة الإنجليز ، وقد أحسوا حملة جريدة العروة الوثقى وتهييجها الرأي العام على إنجلترا ، رأوا أن يتفاهموا مع القائمين عليها فبعثوا إلى السيد جمال الدين في ذلك ، فأرسل مندوبه الشيخ محمد عبده وقال : «رأينا أن يذهب الشيخ محمد عبده (المحرر الأول لهذه الجريدة) إلى لندرة إجابة لدعوة من يرجى منهم الخير لمصرنا ومن يؤمل فيهم حسن النية (إشارة إلى مستر بلنت) ...

قابل محرر الجريدة كثيراً من رجال السياسة الإنجليزية وحادثهم محادثات طويلة في المسألة المصرية ، ومن هذه المحادثات ما نشر إذ ذاك في الجرائد الإنجليزية ، واكتفى السيد جمال الدين في العدد الرابع عشر من العروة الوثقى بذكر محادثة كانت بين الشيخ محمد عبده ووزير الحربية الإنجليزية لورد «هرتنكتن» خلاصتها أن وزير الحربية سأل الشيخ محمد عبده [illegible] المصريون أن يكونوا في أمن وراحة تحت سلطة الإنجليز وهي خير من سلطة الأتراك ومن جاء على أثرهم ، خصوصا وأن الجهالة عامة في أقطار مصر وأن كافتهم لا يفرق بين حاكم أجنبي وحاكم مصري .

ورد الشيخ محمد عبده بما خلاصته أن في المصريين من يحبون أوطانهم حب الشعب الإنجليزي لبلاده ، وأرض مصر من زمن محمد علي انتشرت فيها العلوم والمعارف ، وأخذ كل منها نصيبا على قدره ، ولا تخلو قرية مصرية من قارئين وكاتبين يقرءون الجرائد العربية ويوصلون ما فيها إلى من لم يقرأ ، والنفرة من ولاية الأجنبي من طبيعة البشر فضلا عما تعاليم الإسلام في هذا الشأن[1] .

وقد أخذت الجريدة هذا الحديث وسيلة للتهييج وإثارة الشعور . وعلى كل حال فلم تأت هذه الأحاديث بنتيجة من التفاهم ، واستمرت الجريدة في خطتها حتى حجبت كما أسلفنا .

أحمد أمين

(١) تجد بسط ذلك في الجزء الأول من تاريخ الإمام .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الذى أريد، لأتحسس الأرض التى أنافها . واختصصتُ بالكلام سيدةً عرفتها . فقال صاحبى متعجلا : قد حكّمناك . وابتسمت سيدة أخرى وصديق لى ، فعرفت أنها ابتسامة لها ماوراءها .

قلت : فقيم حكّمتمونى ؟

قال : قبل أن نحكم قل لنا أيهما أكثر عندك ، الصدق أم الكذب .

فنظرت فى عينىّ صاحبى استشفّ فيهما مآربه ، فلم أجد إلا لمعان عين باسمة ، حجب ضياؤها ماوراءها ، فكأنه قطعة الليل الكثيف . ومن الضياء مايُعشى . فجمعت قوّتى وقلت فى غير تردّد : إنى لا أكذب أبدا .

قال صاحبى : إذن فقل لنا ما ترى فى هذا الفستان الجديد الجميل فستان السيدة فلانة .

وكانت السيدة التى اختصصتها بالحديث مطاولة وكان سبق أن ملأتُ عينى الثياب «الجميل» ، فوجدته قليل الطول على امرأة متصفر زادها قصرها على جمال قدّها ، وكان الخيرُ فى ستر هذه القامة أو بعضها ووجدته قصيراً أيضا عند العنق ، وهو عنق كانت الطبيعة سخية عند خلقه فزادت فيه شيئاً كان الخيرُ فى خدعة الأبصار عنه بحجب بعضه . وإجمالا كان ثيابا لا يأتلف ولايستقيم . ولو أنهما أفردا ، لحمد البصرُ هذا وحده ، وهذه وحدها .

ولم يكن بدّ من جواب صاحبى . ولم يكن بدّ من أن يكون الجواب سريعاً ولا عُدّ الأبطاء تردداً فى الرأى ، وعُدّ التردّد فى الرأى فى أمر سيدة نقصا فى شهامته . فجمعت قوتى مرّة أخرى وقلت :

— فستان جميل جدا ، لا أحد أجمل منه إلا من ملائمه .

ونظرتُ إلى صاحبى الخبيث أتشفّى .

قال : يعجبنى أن تقول إن الفستان جميل ، ولكن لا يعجبنى أن تقول إن السيدة الرشيقة « ملائمه » .

وكان من ستر الله أن السيدة بدأت تجيبنى ، فلم تملأ أذنها مما قال صديق .

قالت : إنك تكذب يامرزى ، فأنت كسائر الرجال يكذبون إذا أحرجوا فى أمر النساء ، أو أى أمر عجزوا . إن هذا الفستان أبغض ما عندى ولكنه ما ترتضيه « الموضة » الجارية .

فقلت : مع احتفاظى برأيى فى جمال هذا الفستان ، أسألك هل ترين فضاضة فى كذبة لا يكون منها إلا إدخال السرور إلى القلوب ؟ وهل ترين حقا أن الرجال وحدهم يمتازون على النساء فى القدرة على إدخال هذا السرور إلى القلوب ؟

قالت السيدة الأخرى ، وقد لمحت فىّ بعض الدهشة من تطوّر الأمور : الواقع أننا كنا نتحدّث فى الصدق والأمانة ، وكم عند الرجال منها وكم عند النساء . وكان هذا السؤال الذى ألقى عليك امتحانا .

قال صاحبى متمّما : جئتَ يا صديق بجوابك هذا تعزّز به رأى فى قلة الصدق وقلة الأمانة عند هؤلاء وهؤلاء .

فقلت : فهل معنى هذا أنك ترى هذا الفستان الجميل غير جميل .

قال : لا ، أبدا . الفستان والله جميل جدا ياسيدتى .

قالت السيدة : رأيك فى الصدق والأمانة والله جميل كذلك .

وضحكنا . ثم صارت المفاتحة مكاشفة ، وجرى الحديث تبسطا . وأخذنا نستعرض فى صراحة كم عند الناس من صدق ، وكم عندهم من أمانة .

قلت : الحق إن الصدق فى الأمر الخطير فضيلة ، ولكنه قد يكون فى أمور أخرى رذيلة : خذ مثلا — جاءنى بالأمس القريب خادم قديم راثوا . وجاء من الريف ، فحمل إلىّ من الهدايا ما خال أنى أسرّ به وأغتبط . فكان لا بد من شكره ، وفى الشكر لا بد من كلمة طيبة عن هديته ، ووصفها بما ليس فيها . فهل

يكون الصدق هنا إلا تحيها للرجل وتقريباً ، وهل يكون فيه إلا جزاءُ الإحسان بالإساءة . على أن هناك مواقف كثيرة تواضع الناس على الكذب فيها ، أو هم تواضعوا على أن لا يحفلوا بالصدق أو الكذب فيها . خذ مثلا — صديقا يناديني على عجل « كيف الحال » ، وقد يكون الحال في ذاك اليوم أسوأ ما يكون ، فهل ينتظر مني أن أقول له إن حال كالقطران . معنى هذا أني استوقفه . فهو مضطر بعد ذلك أن يسألني تحليل هذا القطران ، أن يسألني تفصيل ما أجلت ، وأنا مضطر إذا هو سأل إلى أن أجيب وأفيض . وأنا أقول على غضاضة ، وهو يسمع في الأكثر على غضاضة ، ثم يفارقني وهو يلعن الصباح الذي جرّ إلى هذا الصديق الثقيل الذي أريد منه كلمة واحدة ولو كاذبة ، فأعطى قصة طويلة مملة صادقة .

قال صاحبي متحاشا : لا عذر عن الكذب أبداً . ولك يا عزيزي في الجواب مهرب ومهارب . قل لمن يسألك إذا سألك كيف الحال ، قل له « بحمد الله » .

قالت السيدة الأخرى : تعني أن تقول إن الحال « طيب » أو « بالحمد لله » ، بدل أن يجيب بأن « الحال طيب » أو بأن « الحال كالقطران » . وإذن يتواضع الناس على أن « الحمد لله » هو « الحال القطران » ، وإذن لا رحنا ولا جئنا . إني لا أرى أن تقاس أمانة المرأة أو أمانة الرجل بما يضطره الأدب إلى قوله ، أو تضطره العادة إلى إتيانه ، وإنما أرى أن تقاس بما يفعل المرء في مواقف الإغراء .

فأنت يا عزيزي قلْ لي ، لو خرجتَ في الصباح فوجدتَ في الطريق محفظة نقود ، وفتحتها ، فوجدت فيها مائة جنيه عدّاً ، أو حتى خمسين ...

قال صاحبي مجيبا مقاطعاً : لا والله ولو خمسة ...

قلت : لشلك ولو خمسة قروش

قال صاحبي : إن الأمانة كالأشياء لها ثمن ، وأنا أرى بأمانتي أن تباع بخمسة قروش .

قلت : ونبيعها بقرش يا صاحبي . قل لي : إذا أنت بلغتَ بالترام غايتك ، ولم تكن دفعت أجرة الترام — وأربحْ ، إغلاءً في أمانتك ، فأسف الترام بأنه كان مزدحماً ، وأن الكمساري كان في الطرف الآخر من القطر — فهل ترتفع أمانتك إلى أن تنادي الكمساري من آخر القطر لتدفع له الأجر .

قال صاحبي : إن في هذا تأخير القطار . وما صواب عمل تكسب منه الشركة مليمات ، ويضيع فيه على المئات من الراكبين خمسة دقائق ثمينة من أعمارهم .

قلتُ بعد أن ضحكنا : الواقع أني لم أحسن امتحان صديقي بهذا المثل . فالإغراء لا شك كبير ، والأمانة حظها قليل ، عندما تتعلق الأمانة بشخص معنوي كشركة ...

قالت السيدة الأولى : أو حكومة .

قالت السيدة الثانية : أو بالجمرك . حضرنا من أوروبا آخر مرة أنا وزوجي . وجئنا من الخارج ببعض الملابس والنفائس ، وهي بالطبع جديدة ، وقد حققتْ عليها الضريبة ، فلم يكن من زوجي إلا أن بعثرها ، وأخرجها من مظهر الجيدة ، ولبس بعضها ، كل هذا تفاديا من ضريبة لم تبلغ إلا جنيهات غير كثيرة . وزوجي مع هذا جواد يجود بالكثير . ولكن لعله « الجمرك » حسب ، فبين « الجمرك » و « المسافر » خصومة في الدم قديمة .

قال صاحبي : وأنت يا سيدتي ، ألم تلبسي الجديد عند دخول الجمرك .

قالت السيدة وهي تبتسم : أي والله ، ودخلت بهذا الفرط الملبسي ، وقد دفعنا فيه في بلجيكا ثلاثمائة جنيه . . . ولم يعدّ هذا نقصاً في أمانة ، بعد أن رأينا فيما حولنا في الجمرك ما رأينا .

قلت : على أن هناك من المواقف ما لا يمكن المرء فيها إلا أن يكون أميناً ، حتى صاحبي هذا .

قال صاحبي متحدّياً : مثال ذلك يا عزيزي ؟

قلت : هب أنك دخلت مخازن شيكوريل ، واشتريت ما اشتريت ، ثم دفعت الثمن ، وانتظرت الباقي ، فأعطته إياك الصرافة ، وأعطتك فيه نصف جنيه فوق ما استحققت ، فهل ترد هذا الزائد ؟

قال صاحبي : أما هذه فنعم ، لاسيما إذا شفع لها جمالها .

قلت : وإن لم يشفع .

قال : وإن لم يشفع .

وهنا كان اقترب منا رجل من رجال الأعمال ، صديق ، فلما اطلع على ما نحن فيه ، رأت صاحبتنا الأولى أن تجر رجله فابتدرته .

السيدة : وأنت ياسعادة البك ، نريد أن نمتحن مقدار الأمانة عندك ، فهل لك في جواب سؤال .

رجل الأعمال : نعم ، ورقا ؟

السيدة : قالت الجريدة بالأمس أنك نزعت البرة عامة

جنيه . فهب أن البرة أرسلت لك رجلا يحمل صندوقا مغلقا لتضع في فتحته ما تشاء دون أن يراك أو يراه أحد ، فكم كنت تدفع ؟

رجل الأعمال : والله هذا سؤال لم يخطر على بالي أبدا ، وهو يحتاج إلى تفكير .

صاحبي : وسؤال ثان يملأ الفراغ ما بين السؤال الأول وجوابه . إذا جاءك بحكم منصبك الذي تشغله من شركتك خبر تستطيع أن تستغله لخير نفسك ، دون إضرار بشركتك ، فهل تفعل ؟ أجب سريعا ، واصدق .

رجل الأعمال : أعوذ بالله من الشياطين . أنتم زمرة خطرة .

ودعته زوجته من أقصى الدار للرواح ، فتنفس الصعداء ، وتنفسنا .

أحمد زكي

العدالة والحرية

حوار سياسي

بحث ممتع في نظم الحكم ومشاكل المجتمع السياسية والاقتصادية والاجتماعية

تأليف لويس ريكفس

مؤلف كتاب معرض الآراء الحديثة

ترجمه وعلق عليه

الأستاذ محمد بدران مدير إدارة الترجمة بوزارة المعارف

وهو مطبوع طبعاً متقناً على ورق مصقول ويقع في ٢٤٠ صفحة من القطع الكبير ، وثمنه ٣٠ قرشاً ويطلب من مقر اللجنة ومن المكاتب الشهيرة وعدد النسخ المطبوعة محدود لغلاء الورق

معرض الآراء الحديثة

تأليف

لويس ، ج ريكفس

تعريب

محمد رفعت

يطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

٩ شارع الكرداسي عابدين — مصر

وثمنه ١٢٠ مليما عدا أجرة البريد

على هامش النقد العربي :

الرواية الأدبية في الأغاني

لعل أهم ظاهرة تقابل من يتصفح كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني أن الأخبار التي يسوقها عن الشعراء والمغنين تشفع دائماً بسند كما تشفع روايات الحديث ، حتى ليقع في ظن من يقرأ فيه لأول مرة أنه بصدد كتاب من كتب الحديث ! إذ يرى الأخبار تبدأ على هذا النمط « حدثنا أو أخبرنا » ، ثم يتلو ذلك أسماء من حملوا الخبر ، فإن كان له روايتان عني بسردها حتى يتوثق الخبر على نحو ما يصنع أصحاب الحديث بأحاديثهم ، فإن الخبر أو الحديث إذا جاء من جهتين أو جهات بصورة واحدة ، كان ذلك مرجحاً لصدقه وخاصة إذا كان طويلا ! فإن الاتفاق على ما حدث فيه من وقائع يجعل من البعيد أن يكون موضوعاً أو مصنوعاً ما دام الرواة المختلفون قد اتفقوا على هذه الوقائع ، مهما تعددت بها من جزئيات وتفاصيل .

وقد خطا أبو الفرج خطوة أخرى في موضع على الرواية الأدبية كل ما وضعه المحدثون على رواياتهم الدينية من علل ومراصد ، فإذا كانوا قد تعقبوا رجال السند بالتعديل والتجريح ، فكذلك يصنع أبو الفرج صنيعهم رواة الأخبار الأدبية . وقد ألقى الشك على كثير من الرواة للأحداث الأدبية وخاصة ابن خرداذبه لأنه كان قليل التحصيل لما يقوله ويضمنه كتبه ، فكان يرفض روايته إذا تعارضت مع رواية غيره ، كما كان يرفض كثيراً رواية ابن الكلبي فإنه متهم في رأيه ، إذ يروي كثيراً من الأخبار الموضوعة التي يتصنع فيها التوليد .

كان أبو الفرج يجرح بن خرداذبه وابن الكلبي من رواة الأخبار ، كما كان يجرح طائفة من رواة الأشعار ؛ فهو يذكر أن أبا عمرو بن العلاء يحمل الأعشى بيته المعروف :

وأنكرتني وما كان الذي نكرت
من الحوادث إلا الشيب والصلعا

غير أنه يعود فيقول إن يحيى بن معين وغيره وثقوه ، وكأنه رأى أن هذا الصنيع من أبي عمرو كان شيئاً عارضاً لا يحكم على روايته به حكماً عاماً . لم يكن أبو الفرج يتهم أبا عمرو ، ولكن ذلك لم يمنعه من أن ينص على خلل حدث في روايته . وهو إذا لم يكن قد اتهم أبا عمرو ، فإنه اتهم عالمين آخرين من مشاهير الرواة وهما خلف الأحمر ، وحماد الراوية ، فقد شكك طويلا فيما يرويانه . أما خلف فقد جعله ينص سيرته من الانتحال بلسانه إذ كان يقول : « كنت آخذ من حماد الراوية الصحيح من أشعار العرب وأعطيه المنحول ، فيقبل ذلك مني ويدخله في أشعارها ، وكان فيه حمق وغفلة » ، وأما حماد فقد كان — في رأيه — أكثر إغراباً للشعر القديم من خلف ، إذ عرف بكثرة الوضع على ألسنة العرب حتى أسقط المهدي روايته . وقد كان المفضل الضبي — وهو من الثقات — يقول فيه : « قد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده ، فلا يصلح أبداً » . فقيل له : فكيف ذلك أيخطئ في روايته أم يلحن ؟ كان لينه كان كذلك ، فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب ، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله في شعره ويحمل ذلك عنه في الآفاق ، فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد ، وأين ذلك ؟ » .

وأبو الفرج كما يرصد رواة الأخبار والأشعار ، فيجرحهم ويعدلهم ، كذلك رصد الأخبار والأشعار نفسها . فكثيراً ما تقع أعيننا في كتابه على مثل : « روى ذلك الثقات » ، أو : « لم يدون ذلك أحد من الثقات » ! أو يقول : « رواه من لا يوثق به » ، أو يقول : « هو من شاذ الروايات » ، أو يقول : « أحسب هذا الخبر مصنوعاً » ، أو يقول : « هو خبر مختلط » ، أو يقول : « هو خبر موضوع أو مصنوع » ، على حين يوثق الأخبار الصحيحة فيقول : « إن هذا الخبر أثبت » ، أو يقول : « إنه متواتر من عدة طرق » .

والحق أن أبا الفرج تثبت كثيراً فيما يقص أثناء كتابه من روايات وأخبار ، فقد كانت غايته منذ السطور الأولى في أغانيه أن لا يروى أخباراً موضوعة ولا مصنوعة ، إذ هي كما يقول في المقدمة — بأن تكون أخباره وروايته « منتخلة من غرر الأخبار منتقاة من عيونها ومأخوذة من مظانها ومنقولة عن أهل الخبرة بها » . فنايته منذ الخطوة الأولى أن يحقق أخباره ، وأن يأتي بها من مصادرها الصحيحة . غير أنه لم يلبث طويلا حتى أحس بما تسرب إلى كتابه من مواد موضوعة أو مصنوعة ، فرجع يعتذر عما وقع فيه من خطأ لم يتعمده إذ صلته بعض الأسانيد أو بعض الكتب ، وقد عبر عن ذلك تعبيراً واضحاً إذ يقول : « وإنما نذكر ما وقع إلينا عن رواته فما وقع من غلط فوجدناه أو وقفنا على صحته أثبتناه وأبطلنا ما فرط منا غيره ، وما لم يجر هذا المجرى فلا ينبغي لقارئ هذا الكتاب أن يلزمنا لوم خطأ لم نتعمده ولا اخترناه ، وإنما حكينا عن رواته واجتهدنا في الإصابة » .

والمسألة كانت معقدة فيما يظهر ، لأن [illegible] الأحداث والأخبار الأدبية يدخله الشك ويصف النقد ، كأخبار مجنون ليلى التي رواها وأحداثه ، فهل يروى مثل هذه الأخبار والأحداث أولا يرويها ؟ رأى أبو الفرج أن يرويها حتى يعرف قراءه بتلك الطرائف النادرة ، وقد أشبت بها بعض المعاصرين ، فظن الظنون بروايات أبي الفرج وقيمتها التاريخية ، وكأنه لم يقرأ بقية الأخبار ، وما يقوله أبو الفرج من أنه يرويها « متبرئاً من العهدة فيها مشترطاً ذلك حتى لا يعاب » .

وإن من يتابع أبا الفرج في كتابه ليؤمن إيماناً شديداً بأنه تعب تعباً مرهقاً في تحقيق رواياته ، والتثبت من أخباره ، إذ كان يكثر من الوقوف عند الرواة ، كما كان يكثر من الوقوف عند المتون والنصوص نفسها ، فهو يتوثق من ظاهر الأخبار كما يتوثق من داخلها ، إذ نراه يعرض الأشعار على دواوينها كما يعرض الحوادث على التاريخ ليتبين هل هي صحيحة أو زائفة . وانظر إليه يقول بعقب شعر لداود بن سلم : « وقد كنا وجدنا هذا الشعر في رواية علي ابن يحيى عن إسحق منسوباً إلى الرقاشي ، وطلبناه في أشعار الرقاشيين جميعاً فلم نجده ، وكنا نظنه من شاذ الروايات حتى وقع إلينا في شعر داود بن سلم ، ويروى شعراً للأعشى ثم يشك فيه فيراجع دواوينه على رواياته ، فلا يجده فيها فيراجع شعر كل أعشى ، وما زال يبحث حتى يهديه البحث أن الشعر ليس للأعشى ، وإنما هو لابن المولى » .

وليس من شك في أن هذا تحرٍّ شديد ، وهو كما يتحرى في نصوص الشعر فيعرضها على الدواوين رواياتها المختلفة حتى يتحقق من صحتها ، نراه كذلك يتحرى في الأخبار فيعرضها على وقائع التاريخ حتى تتضح له الحقيقة المستورة . فمن ذلك أنه روى خبراً للدحان مع الرشيد ، ثم عاد فشك فيه فرجع إلى التاريخ يتساءل : هل أدرك دحان خلافة الرشيد أو لم يدركها ؟ وسرعان ما تبينت له الحقيقة فقال : « هكذا أخبرنا ابن الزرقان بهذا الخبر ، وأظنه غلطاً لأن دحان لم يدرك خلافة الرشيد » . ثم هو يبحث الخبر في تفاصيله ، فإن اشتمل على شعر تبت أنه متأخر في وجوده [illegible] نفسه جملة على نحو ما صنع بحادثة نصب [illegible] إلى الوليد بن يزيد ؛ فقد ذكر من رواها أن الوليد قال فيها :

من راقب الناس مات غماً ... وفاز باللذة الجسورُ

وقد حقق أبو الفرج هذا البيت فوجده لسلم الخاسر ، حينئذ رفض الحادثة كلها وقال : إنها موضوعة لأن سلما لم يدرك زمن الوليد .

والحق أن أبا الفرج سعى جهده في تحقيق رواياته الأدبية في أغانيه ، إذ وضع عليها كثيراً من العلل والمراصد ، وهي علل ومراصد لا تقف عند النقد الخارجي للروايات من حيث السند ورجاله ، بل تمتد إلى النقد الداخلي فيها من حيث النصوص وما يتفق منها مع الوقائع والأحداث الصحيحة وما لا يتفق . ونحن لا نرتاب في أن هذا التحقيق الواسع ، وما ينطوي فيه من علل ومراصد ، هو الذي يصعد بكتاب الأغاني إلى الذروة بين أهم المصادر العربية ؛ إذ نراه غنياً غنى وافراً بالوثائق والمستندات الصحيحة التي تفسر للباحثين تاريخ العرب وحضارتهم تفسيراً وافياً .

شوقي ضيف

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

سيرة عنترة (١)

رأينا في سيرة سيف بن ذي يزن عرضا جميلا للنزاع الذي قام بين الساميين والحاميين ، وبين العرب الجنوبيين والشماليين ؛ كما رأينا أيضاً كيف أن بلاد العرب كانت إلى جانب القارة الافريقية مسرحاً هاماً لتلك الحروب المتواصلة ، والتي كانت جاهلية حينا وإسلامية حينا آخر ، والتي انتهت بانتصار الساميين في الجزيرة ، وساحل المكتبين في افريقية . وعلمنا من حوادث هذه السيرة أيضاً كيف بسط الجنوبيون سلطانهم على بعض الأصقاع العربية الشمالية وقربوا بين العائلتين الجنوبية والشمالية ، ومهدوا لعملية التزاوج التي حدثت بين اللغتين العربيتين : القحطانية والعدنانية في الجاهلية ؛ كما ساهموا بنصيب وافر في خلق اللغة العربية الأدبية التي سجل فيها العرب شعرهم الجاهلي وشعرهم في الإسلامي ، واتخذها [illegible] رسالته . وقلنا إن النقوش التي [illegible] السامية والمعلومات التي جاءتنا عن [illegible] وأخبار السير [illegible] من أهم المصادر العربية ، أعني سيرة عنترة بن شداد التي تعبر بحق الياذة الصحراء ، فشخصية بطلها مازالت حية بيننا ، وما زال لفظ « عنتر » المثل الذي يضرب للشجاع ، كما اشتق الشعب منه كثيراً من المفردات التي تتصل بهذا المعنى عن قرب أو بعد . فالشخص القوي يدعى (مِعْنَتِر) ، والحمل الثقيل الذي لا يقوى على حمله إلا من أوتي قوة عنتر هو (حمل معنتر) ، ولباس النساء الذي يبرز ثدي المرأة ويقويه يسمى (عنترى) ، وأكبر مقوية عرفتها أسيوط القديمة هي (اصطبل عنتر) شخصية عنترة إذاً من الشخصيات التي تتنقل في صميم الحياة العربية ، وهي الشخصية التي تتمثل فيها الرابطة السامية الحامية أجلى تمثيل ، فنحن هنا لا نرى نزاعا بين هذين الفرعين ، بل نلمس صفاء ومودة وسلاما ؛ فأم عنترة (زبيبة) حامية ، وأبوه سامي ، ويفخر بطل القصة بنسبه هذا ويقول :

بقدومه حامي من حجر عبس
أبوه ، وأمه من آل حام
مجوز من بني حام بن نوح
كأن جبينها حجر المقام

وهذه السيرة ، التي تشغل بضع آلاف من الصفحات المتوسطة الحجم ، تتحدث عن نجد بن عشام وجهينة الجاني وأبي عبيدة والأصمعي وسعيد بن مالك وغيرهم أهلت أحاديثهم كرواة لها ، والتي حفظ لنا التاريخ منها روايات بينها شيء يسير من الفروق ونسبت إلى الأقطار الحجازية والمصرية والشامية والعراقية ، سجل حافل لحوادث وقعت في [illegible] العربية والعالم الإسلامي في الفترة الممتدة بين القرن السادس والحادي عشر الميلادين . ففي نجد قلب [illegible] في منتصف القرن السادس الميلادي بطون [illegible] ، كما دار في المنطقة الواقعة بين [illegible] وجبال طيء بنو سليم وهوازن ، وشرق هوازن نجد بني غطفان الذين حل من أفخاذهم بنو ثعلبة بين عبس وذبيان . وكانت منازلهم الأولى الشريطة الواقعة بين الشرق ومكة . وفي ذلك الوقت الذي تتحدث فيه السيرة كان زهير بن جذيمة قد بسط سلطانه على غطفان ، وما كان يستقر له الأمر حتى تجد الغارات تلو الغارات بين العدنانيين والقحطانيين ، وفي إحداها سبي العبسيون كثيرين من بني عديلة وغطفان ، وخوارزمهم وعبيدهم وعددا كبيرا من جمالهم التي كانت ترعاها أمة حبشية تدعى (زبيبة) وهي أم بطل السيرة . ثم بعد أن ينتهي الحديث عن العدنانيين والقحطانيين نجد السيرة تنتقل بنا إلى أرض العراق إلى بلاد الحيرة حيث يدور قتال بين عنترة والنعمان بن المنذر ؛ وذلك لأن الفارس العبسي يريد مهر عبلة وهو ألف من النوق الصهالية التي لا توجد إلا في العراق . وهنا نقرأ وصفاً جميلا لبلاد العراق والعراقيين

(١) اعتمدت هنا على الطبعة البيروتية التي طبعت ١٨٩٢ و ١٨٩٦ و ١٨٩٨ و ١٨٩٩ و ١٩٠٠ و ١٩٠١ .

والعلاقات السياسية التي كانت تربطهم بالفرس . وكما أن السيرة وصلت بين نجد والعراق بمر عبلة إذا بها هنا توقع عنترة في الأسر ليتخذ المؤلف من ذلك قنطرة يعبر عليها إلى إيران ، ومن ثم ينتقل بنا إلى الدولة البيزنطية ويضع لنا السياسة الفارسية تجاه الدولة الرومانية الشرقية ، وهو في عرضه هذا لا ينسى العرب وموقفهم من هذا النزاع القائم بين كسرى وقيصر ، وهذه الخصومة التي اهتم بها القرآن الكريم وأشار إليها في سورة الروم . وفي الصحيفة الثانية والأربعين بعد المائة نرى الراوي يحدثنا عن الحرب التي قامت بين ملك الحيرة المنذر ملك العرب عبدة الأحجار وكسرى ملك الفرس عبدة النار ، وينتصر العرب بفضل عنترة الذي سجل بطولته في قصيدته المشهورة التي مطلعها :

سلي يا ابنة العبسي رمحي وصارمي
وما فعلا في يوم حرب الأعاجم

لكن المستمر يعلم أن الفرس سيعاودون الكرة ، وأدواته هو أن سلامته وسلامة الإمبراطورية تقتضي منه أن يكون جيشه قوية ضد العجم ، أعني لا يتدخل [illegible] تعاون العرب واتحادهم في سبيل [illegible] الخارجي . وهنا نرى السيرة تحدثنا عن الدولة العربية [illegible] لا يقل طرافة عن أحاديث اليوم . وفي الصحيفة الثامنة والأربعين بعد المائة نرى المنذر يخاطب عنترة ويقول : ولكن يا ولدي من الرأي أن أكتب إلى سائر القبائل ، وأجمع العرب من الأحياء والمناهل ، وأناجز حرب الملك كسرى فإنه لابد أن يعود إلينا ويسطو بعساكره علينا ، وأول ما أرسل إلى قومك بني عبس وعدنان ، وفزارة وذبيان ، وسائر بني قحطان ، ولا أزال إلى أن أقيم دولة العرب ، وأذل عباد النار واللهب . . . . لكن ربنا المنذر يعمل لجمع شمل العرب إذ يعمر بن عبلة يظهر على المسرح كوزير المنذر ويعرض عليه حبر التوسط بينه وبين كسرى لإزالة أسباب النزاع ، ثم تقفز السيرة إلى القرن الحادي عشر الميلادي حيث الحروب الصليبية وتحدثنا عن بطريق جبار وفارس من كبار الفرسان يدعى (بهرموت) الذي هو (بوهيموند Bohemund) والذي هزم سائر فرسان إيران ولم ينقذ كسرى منه إلا البطل العبسي عنترة ، وبعد حفلات الوداع والتكريم نراه يعود إلى عبلة ومعه المنتصر والكثير من الهدايا ! لكن عمه مالك يرفض زواجه بها لأن السيرة تقع في حلق خصوم لعنترة يخاطبونه حب عبلة والقيام بها ، وعنترة يكافح صدهم بإخلاصه للعبسيين حينا وتحيته عنهم وقت الملمات حينا آخر ، وفي ثنايا هذا النزاع بين الفارس وقبيلته نقرأ وصفا لمعركة نشبت بين بني عامر تحت إمرة خالد بن جعفر والعبسيين بزعامة زهير بن جذيمة الذي قتل في هذه المعركة وبينما سيف ابنه ورفاه عندما هوى به على خالد يريد قتله وإنقاذ والده[1]

ثم تعرض السيرة للغساسنة وتحدث عنهم وعن النصرانية ، وتصل بينهم وبين بصارى تجران ، ثم تصف زواج عبلة بعنترة وتعقد هذه الفرصة وتذكر لنا حفلا للعبسيين ومنهم الدنانى ، ومنهم القحطانى . وبعد أن [illegible] ذلك تواصل سرد أعمال عنترة فتخلع عليه توبة [illegible] حرب الذي صنع لهوه خير ، ثم [illegible] من [illegible] أخرى حتى نرى عنترة في بلاط [illegible] حرب [illegible] حرم والتي وضعت لعنترة [illegible] (جودفرى) ، ولكن هو في الواقع أحد فرسان الحروب الصليبية الدنمي (جود فراي Cod frey) (أوائل القرن الحادي عشر) وتختم السيرة بالحديث عن الفتوحات الإسلامية ، وعن مصر وشمال أفريقية والأندلس .

والآن بعد هذا العرض نوجه إلى أنفسنا السؤال الآتي : ما هي حقيقة هذه السيرة وأين ومتى ألفت ؟ ليس من العسير الإجابة على هذا السؤال ؛ فالقارئ المثقف يستطيع أن يقرأها دون كبير عناء ، وأن يخرج منها بأنها عرض وعرض موفق للقبائل العربية وعاداتها وتقاليدها وحروبها في تلك الفترة التي سبقت الإسلام أو مهدت لظهوره . فهنا نرى العدنانية تنتصر على القحطانية بل وتخالف السنن والأوضاع المعروفة عند العرب من قبل وتلحق بنسبها

(١) وفي هذه الحادثة أشار الفرزدق معرضا بأخوال سليمان بن عبد الملك :

إن بك سيف خان أو قدر أبي ... وأخبر نفس حتفها غير شاعد
فسيف بني عبس وقد ضربوا به ... نبا بيدي ورقاء عن رأس خالد

لعب القدر

— ٢ —

لفريدريك شيلر

فيوضح ما تقدم :

[كان الوزير فون ... ج قد حلموا ، بكريم الصفات ، أبيض الخضر ، واسع الاطلاع ، فاستخدمه أمير في حاشيته فبهره مقاله ، فأخذه تحيره ومشيره . فلم يلبث أن استحوذ على الأمير ، فأبعد الكلية كلها ، والطريق إلى الأمير عن طريقه . وكان الأمير في مثل سن صفته متفقا وإياه في الميول والمشارب لولا أن السهر يشد الحطام ، والأمير يحب الاتكال على الحطام . فكان أن تفرغ الوزير للشئون الدولة شيئا فشيئا ، وأن خفت من خشيان مبازل الأمير . ولم يكن ناس في أن يحل غيره في هذه المناطق عليه ، فاختار لأميره بدلا إيطاليا يدعى مارتينجو ، جعل كل همه أن يبال الحظوة لدى الأمير في عقلة الوزير ، فلما تمكن منه ، فكر في الإيقاع بالوزير ومن ... إلى أن أتيحت له الحيل . وقد توله ذلك ، وسقط الوزير من ... وحرم من ألفاته ورمته على ... الوزير ساكنا ... الزمان ... المترجم] .

وسيق من الساحة إلى مركبة انطلقت به وسط شوارع المدينة فكانت ترى النوافذ مفتحة ، والطرقات حافلة بالطغمة يتصايحون من خلف الموكب : هذا ساحر وذاك شامت ، وآخرون آسفون أسفا شديدا على نفس الأبي من السحر والشماتة .

وألفى أوريوس نفسه في العراء ، ثم في طريق مفض إلى المحكمة العليا التي كابد أمامها صنوف العذابات من خشية الموت . ثم اقتيد في طريق مأهول إلى حيث قدر له أن يكون : إلى السجن . وقضى ، بين أن سيق من ساحة العرض وبين السجن ، اثنتي عشرة ساعة حافلة بألوان الهول لم يذق فيها طعاما ولا شرابا ؛ فتداعت بنيته القوية ، وأخرج من المركبة مغشيا عليه ليزج به في جنب يشع في ... القامة حين ... الرشد . فكان أول ما أخذ ... في حياته الجديدة حائط السجن الرهيب . ثم أجال ... في المكان ... على رغيف ضئيل وجرة من الماء ، ... بقوارها كوة من القش لفراشه .

عنترة ابن الأمة الحبشية وزوجه حبلة بنت مالك أحد سادة بني عبس فتمحي بذلك الفوارق الجنسية وتحطم الحواجز القائمة بين أفراد القبيلة الواحدة .

فإن عابوا سوادي منذ كرى ... وجاروا من عناد في ملامي
على قلب أشد من الرواسي ... ولوني مثل لون المسك نام
وما أسمو بلون الجلد يوما ... ولكن بالشجاعة والكلام

وغير هذه المبادئ الجنسية التي تعترف بها السيرة ويقرها الإسلام تجد فيها الشيء الكثير من عادات العرب وأخلاقهم في الحرب والسلم كما نعلم شيئاً عن تقسيم الغنائم وحظ الحر والعبد منها ، ونقرأ بعض صيغ للقسم تدل على شيء كثير من الاعتزاز بالجنس العربي والخلق العربي كقولهم : (وذمة العرب) التي استعمل الإسلام عوضا عنها (ذمة الله) . وإلى جانب كل هذه المعلومات تجد القارئ عشرات من القصائد المنسوبة لعنترة وغيره من الشعراء والشواعر ، وكذلك بعض المقطوعات الخاصة بالأدب ، والمعلقات ، وحتى قصيدة الأعشى التي مطلعها :

ودع هريرة إن الركب مرتحل
وهل تطيق وداعا أيها الرجل

وغير الشعر تجد مناظرة لغوية بين عنترة وامرئ القيس نعرف من خلالها كثيرا من أسماء السيف والرمح والدروع والخيل والنوق والحمرة والحيات .

أما وطن السيرة فهو مصر بدليل التعبيرات المصرية . فنحن نقرأ فيها مثل (مرحنا إسلامتك) و (يا خوى الحمد لله) و (لحد الآن) و (إكراما للعين تسكرم ألف عين) إلى جانب ذكر مصر وبعض مدنها . عرفنا الآن موضوعات هذه السيرة ووطنها ، أما عصر تأليفها كما هي بين أيدينا اليوم فيرجح أنه كان في أواخر القرن الحادي عشر مع الإشارة إلى أن القصاص كثيراً ما غيروا فيها حذفا وإضافة كما يتضح لنا ذلك عند قراءة الفصول الخاصة بالحروب الصليبية .

فؤاد حسنين

ولبث على هذه الحال حتى اليوم التالى فإذا كوة فى أعلى الجب تفتح ، وتمتد منها يد بسلة تتدلى إليه زاد كزاد الأمس . ولأول مرة ، بعد هذا التحول الخيف فى حظه ، يتزع منه الألم والحنين بضعة أسئلة : كيف أتى إلى هنا ؟ وماذا اقترف ؟ لكن أحدا فوق لم يحر جوابا وانسحبت اليدان اللتان أدتا إليه الزاد وأغلقت الكوة .

وأحصى فى هذا المكان المعين تسعين وأربعمائة يوم أدليت إليه بعددها أرغفة لا غناء فيها ، من الظهيرة للظهيرة ، وعلى وتيرة واحدة ؟ لا يرى وجه آدمى ، ولا يسمع صوته ، ولا يستخلص شيئا من هذا الصبر الرعب عن مستقبل أو ماض ، ولا تخلص نفسه من الشك ، ولا تحييها شعاع من نور ، ولا تمنحها نسمة نقية ؛ بعيدا عن العون ، محروما من عطف الناس .

وشىء آخر طفح به كيل شقائه واكتنفه فى أوائل أيام اعتقاله ، وذلك أنه يعرف هذا المكان [illegible] الذى أمر بنائه منذ بضعة أشهر ليسجن [illegible] عريسه سوء طالعه [illegible] يشخصه ليمان بناءه ، ويحتث تمامه [illegible] القلعة ، ويتحكم فى هذا الجب نهاية الأمس وعنف انتقامه لتكمل آلامه . وقد حالف شعوره بشقائه قسوته على نفسه واحتقاره إياها ، والألم الذى لا تعرف القلوب المتكبرة أمرّ منه ، وهو أن يكون المرء تحت رحمة عدو لم يرحمه

لكن عدوه بالأمس كان رجلا شريفا مستقيما لا يعرف الدناءة فى الانتقام . وقد آلم قلبه الرحيم أن يقسو على سجينه تنفيذا للتعليمات التى كان أمينا فى تنفيذها شأن الجندى القديم . ولود أن يخفف عنه العذاب لكنه لم يستطع له سوى الأسف والرثاء

وكان للقلعة واعظ قسيس تلاقى إليه خبر السجين متأخراً ، وعلى متن الإشاعات ، فصمم أن يهون عليه . وكان قساً مبجلا ، يؤمن بأن وظيفته الرعوية لا تخدم بأنبل من التخفيف عن رجل تعس قدم كل تخفيف

وكان يعلم أن حاكم القلعة لا يملك أمر إدخاله عليه فسافر إلى حاضرة الأمير ، وجثا أمامه على ركبتيه ، وناشده الرحمة بالسجين الذى يقضى محروماً من إحسان الدين للتسامح مع أشد المجرمين ، ويذهب قانطاً من رحمة الله .

وطلب القس من الأمير أن يأذن له فى الدخول على السجين الذى هو من رعيته بحق الاعتراف والمسئول هو من وجوه أمام الله . فأجاب الأمير رجاءه ، وإذن له فى إدخال السرور على قلبه بزيارته ، وكان عضبه عليه قد تنفس بشىء ما .

كان أول محيا آدمى طالع أوزوس التعس فى الأشهر الستة عشر التى قضاها فى السجن إلى ذلك الحين وجه مستعفه . وقد كان الصديق الوحيد الذى عاش له فى هذه الدنيا سنيا أشقائه ، وقد حجر جاهه عن أن تمده بصديق [illegible] أولها له القس كانت وكأنها من ملك كريم ، [illegible] أحاول أن أصف مشاعره . لكنه جعل من [illegible] جنة البكاء ، يرفق فى البكاء ، لأنه ألقى فى نفس [illegible] بكاء

وقد [illegible] القس الذعر حين دخل هذا الجب الذى جعل للقتل ، وتشت عينيه عن الشىء فيه — فزحف إليه من أحد الأركان شىء مهيل يلقى الرعب فى القلوب ، وكأنه زحف من مأوى وحش لا مسكن إنسان . هيكل عظمى شاحب اللون كرمن الموت ، قد زايل وجهه كل ما يدل على الحياة ، واحتفر فيه الأسى واليأس تجاعيد بعيدة الغور . وقد نمت لحيته وطالت أظافره بفعل الزمن والإهمال طولا فظيعا ، وبليت ثيابه من طول الاستعمال بلى ساحقا ، وبقى الهواء من حوله من وفرة الأقذار .

هكذا وجده القسيس أثير الحظ وحليفه فى سالف الزمان ! فثار لمنظره ثائره وهرول إلى حاكم القلعة يستعطفه لتعس المسكين ويستنديه منة أخرى ليس من دونها نفع المنة الأولى

فلما اعتذر له الحاكم بتعليماته ، قرر السفر إلى مقر الأمير ليسأله العفو عن السجين . وقد قال له إنه لن يقرب

سجينه بشيء مقدس مالم يرد إليه شبهه بالآدميين فأجابه الأمير إلى ما طلب وبات السجين من ذلك اليوم في عداد الأحياء .

قضى أوزوس في تلك القلعة عدداً من السنين في حال أنعم وطأة من حاله السابقة وأرحم به كثيراً ، بعد إذ أفل نجم الحظوظ الجديد ، وتعاقب على مكانه كثيرون غيره . وكان هؤلاء أكرم نفساً من سلفهم ، وليس ما يثأرون له من سجينهم . وأخيراً حل يوم الخلاص بعد عشرة أعوام — لكنه لم يحاكم ولم يبرأ ، بل ألقى حريته من يد سيده منة ومنحة ، وفرض عليه أن يغادر البلاد إلى غير رجعة .

وهنا ينقطع حبل الأخبار التي تلقيناها من أفواه الناس وأثبتناها تاريخ أوزوس فإن [illegible] مضطراً إلى أن أخطى من الزمن عشرين عاماً [illegible] في خلالها حياته الجديدة الخاصة في [illegible] بلغ فيها القمة التي أسقط منها في ربقة [illegible] ثم تولى الزمن بصير التعساء الذي يحقق العدالة [illegible] ولكنه لا يغفلها — تولى أيضاً قضية أوزوس . فقد ولت سنو اللهو وإشباع الشهوات من الأمير ، وأخذت الإنسانية تقرر حقها عليه حين ابيض شعره . فأحس الحنين إلى حبيب صباه وهو يمشي إلى القبر ، واستدعى المجد إلى وطنه ليعوض الشيخ ما أخلق بالرجل . وقد كان أوزوس عاوده الحنين منذ أمد رفيقاً ، حين تلاقيا كان التلاقي مؤثراً ، والاستقبال حاراً خداعاً ، كأنما كان افتراقهما أمس وخدع الأمير وجه أوزوس بنظرة فاحصة ، فإذا وجه يعرفه وكأنه لا يعرفه ، وخيل إليه أنه يحصي تجاعيده التي احتفرها بيده . وقد فتش في وجه الشيخ عن قسمات الشاب التي استبدت بحبه ، فلم يجد ما يبحث عنه ، وتكلم كلاهما رفع الكلفة فاستشعرا مثل برود الثلج ؛ وظل القلبان يفصلهما إلى الأبد الحزن والخوف . والمنظر الذي يذكر الأمير بشرعه لا يمكن أن يشعره راحة الضمير ، كما أن أوزوس ما كان يحب من نكبه وكان عدة شقائه . لكنه تذكر الماضي هادئاً متعزياً كالحالم الذي يستشعر الراحة بعد التخلص من حلم ثقيل .

على أنه لم يمض طويل وقت حتى كان أوزوس يقبل كل مراتبه السابقة ، يريد الأمير أن يعوضه خير العوض من ماضيه كاتباً ميله عنه . لكنه أكان بوسع الأمير أن يرد إلى صفيه السابق قلبه الذي أتلف فيه الأحساس بالمنة ؟ أكان وسعه أن يرد عليه حبا الأمل أو أن يصطنع للشيخ هناء يعوضه ما سلبه إياه وهو رجل ؟

لقد ظل أوزوس فإن . ج تسع عشرة سنة أخرى ينعم بهذا الخريف البهيج في حياته ، فلم تستطع الضمائر [illegible] أن تنطق ، فيه نار الشهوات ، ولا أن تكبر فيه سنو [illegible] الطروب . فكان في السبعين من عمره يستولي [illegible] له وهو في العشرين . ومات أخيراً [illegible] بمقتل سجناء الدولة . وكان في أكثر الظن حليماً أن يظهر نحوهم من الرحمة ما تملم تقديره في نفسه ، لكنه كان قاسياً هوائياً في معاملتهم . وفي سورة غضب على أحد هؤلاء التعساء أتى الحتف الذي أرقده في نعشه في الثمانين .

محمود الدسوقي

الأمن بالعقل

بقلم محمد العماوي

معالجة مسائل الخير والشر والحق والباطل

فلسفة جديدة قامت على عدم التعصب لنتائج العقل وتصور الحواس يطلب من مكتبة الفكر الحديث ومن جميع المكاتب الشهيرة بالقاهرة

ثمن ١٠ قروش — ورق أبيض مصقول — النسخ محدودة

أدب القاضي الفاضل

ولد عبد الرحيم بن علي بن الحسن اللخمي البيساني — الذي عرف فيما بعد بالقاضي الفاضل — في إقليم بيسان من أعمال فلسطين ، وكان أبوه قاضيا على هذا الإقليم حتى حدثت جفوة بينه وبين الوالي ، فصرفه هذا عن منصبه وصادر ثروته ، ففر القاضي وابنه إلى مصر ، وكان ذلك في أواخر العصر الفاطمي .

وفي مصر فكر الأب الشيخ في عمل يرتزق منه ابنه الشاب ، فاستخار الله وبعث به إلى ديوان الإنشاء . وهناك التقى الشاب برئيس الديوان وكان اسمه (ابن الجلال) فسأله هذا : ما الذي أعددت لفن الكتابة ؟ قال الشاب : كتاب الله وديوان الحماسة : قال ابن الجلال : وفي هذا بلاغ . ثم أراد ابن الجلال أن يمتحن مقدرة الشاب الكتابية فطلب إليه أن يكتب له [illegible] فعمل الشاب ذلك واطلع الرئيس على إنشائه فأعجبه وأمره بملازمته .

ثم أتى صلاح الدين إلى مصر ، ووصل فيها إلى منصب الوزارة من يد العاضد الفاطمي ، واحتاج الوزير الجديد إلى كاتب من كتاب الديوان ، ففكر هؤلاء يومئذ في أن يمتحنوا له بالقاضي الفاضل ، وكان قد ظهر تفوقه على زملائه ، فرأوا إبعاده عنهم وعنوانه إلى صلاح الدين وقالوا لعل هذا الوزير يقتل كما قتل الذين وزروا للدولة من قبله فيقتل عبد الرحيم معه ونتخلص منه .

غير أن القدر الذي كتب الظفر لصلاح الدين قدّره على إزالة الدولة الفاطمية وسخره لإقامة الدعوة العباسية . ونظر التاريخ فإذا صلاح الدين سلطان على مصر ، وإذا كاتبه عبد الرحيم وزيره ومشيره وصنم لذلك العصر .

والحق أن الذين يعرفون شيئا من أخبار الدولة التي أقامها عصر صلاح الدين ، يستطيعون أن يعرفوا كيف سلمت لكاتبه العظيم زمامات أربع ، لا يكاد يعرف أنها سلمت كلها لرجل مثله في عصر من عصور التاريخ المصري الإسلامي ، وهي الزعامة السياسية ، والزعامة الاجتماعية ، والزعامة العلمية ، والزعامة الأدبية . وبذلك أصبح الفاضل قطب الرحى من الحياة الأيوبية كلها ، حوله تدور هذه الحياة ، وبه تمضي دائما في حركة تطحن بها الحوادث المحيطة بها ، أو تطحنها هذه الحوادث المحيطة بها .

فأما زعامة الفاضل السياسية فيكفي في تصورها قول صلاح الدين : « ما ملكت البلاد بسيوفكم ولا رماحكم ولكن بقلم القاضي الفاضل » .

وأما زعامة الفاضل الاجتماعية فيكفي في تصورها أن نعلم أن شعراء عصره مدحوه جميعا بدون استثناء ، وكان مصارع أحدهم في حياته أن ينال شرف مدحه ومدح سلطانه . وإذا ذهبت تحصي الأشعار التي قيلت في مدح الفاضل وجدتها آلافا من الأبيات موزعة على الشعراء توزيعا يتفق ومقدار الصداقة التي بين الفاضل وبين كل [illegible] . وحسبي أن أحيل القارئ هنا إلى ديوان القاضي [illegible] عبد الله بن سناء الملك ، ففيه من [illegible] في الفاضل ما يربو على جميع المدائح التي نظمها الشاعر في غيره . وفي هذا ومثله ما ينهض دليلا على عظم مكانة الفاضل الاجتماعية .

وأما زعامة الفاضل العلمية فتظهر من أنه كان هو القائم على تنفيذ هذه الخطة المذهبية ، وهي الخطة التي جاء بها صلاح الدين إلى الديار المصرية . وهي تتلخص في إنشاء المدارس العلمية التي تحارب بها الدولة الأيوبية عقائد الدولة الفاطمية . ولقد نجح السلطان ووزيره في تنفيذ هذه الخطة التي رسماها نجاحا لا نعرف مثله . ثم لم يكتف الفاضل بذلك حتى كان يشرف بنفسه على سير الحركة العلمية كذلك . فكان يشجع العلماء على الإنتاج والتأليف ، وكثيرا ما كان يشير هؤلاء في صدور مؤلفاتهم إلى أنهم إنما وضعوها بوحي من الفاضل ومشورته ، بل بتشجيعه ومعونته ، فيكون في هذا وأمثاله إعلان من عظمة الرجل العلمية ، وعلى أنها لم تكن بأقل من عظمته في ميدان السياسة .

وإلى جانب هذا وذاك كان القاضي الفاضل مجدوداً من حيث المادة . ودليلنا أنه كان يشتغل بالتجارة — وإن كانت تجارته بعده لم تستغرق جزءاً كبيراً من وقته ، لأن وقته أضيق من أن يتسع لها . غير أن العجيب أن هذا الرجل الذي كان سعيداً موفقاً في حياته السياسية ، كما كان سعيداً موفقاً في حياته الاجتماعية وحياته العلمية ، كان كذلك سعيداً موفقاً في حياته المادية . فقد أراد الله لهذا الرجل أن يكون وفير الحظ من المال ، يشتري بحره منه بستاناً ، ويزرع فيه الفاكهة ألواناً ، ويتاجر الفاكهة باسمه في أسواق القاهرة ، فتدر عليه تجارة الفاكهة إدرارات هائلة ، وهذا كله عدا ما يكسبه الرجل لنفسه من عمله بحكم مناصبه . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

أما عظمته الأدبية فهي [illegible] والغريب أن الناس نسوا أو كادوا [illegible] السياسية والاجتماعية ، ولكن [illegible] أعمالهم ، كأنما الأدب من بين [illegible] الذي يستأثر دونها بالخلود ، أو كأنما الإنسان نفسه لم يكن يهتدي إلى طريق أبقى له من طريق الشعر والكتابة ، فإذا اتصف بهما ضمنا له هذا الخلود . والحق أن القاضي كان عظيماً من نواح شتى ، أو كان كما يقول الفرنسيون في وصف الرجل العبقري : أشبه شيء بالمنشور الهندسي ذي الأضلاع الكثيرة ، إن أصابه من ناحية أضاءت له جميع جوانبه .

(وبعد) فهل نحتاج دليلاً على زعامة القاضي الأدبية ونحن نعلم أنه صاحب طريقة فنية عرفت باسمه ، ومذهب كتابي أخذ به وكان له تأثير واضح على أجيال أدبية متعاقبة اصطنعت هذا المذهب وطال اصطناعها له ، واعتصرت هذه الطريقة حتى تركتها لنا في النهاية قشوراً جافة لا حظ لها من الماء ، ولا هي تصلح أن تكون لنا نوعاً من الغذاء ؟ لقد وصف العماد الأصفهاني طريقة صاحبه وأستاذه القاضي الفاضل بقوله : « إنها كالشريعة المحمدية التي نسخت ما قبلها من الشرائع » .

ولست أدري قولاً هو أبلغ في مدح هذه الطريقة وشدة تعلق الناس بها في العصور الوسطى من هذا القول .

أم هل نحتاج دليلاً على قدرة القاضي الكتابية وإن حتى كان — وهو أحد مؤرخي مصر في العصر الأيوبي — يقول على لسان أحد الفضلاء الثقات : « إن مسودات الرسائل التي كتبها القاضي إذا جمعت ما تقصر عن مائة مجلد ، وهو مجيد في أكثرها » ؟ .

الحق أن القاضي أمة وحده في الكتابة والترسل وإن كانت طريقته في الكتابة قد أصبحت لا تلائم أذواق الكتاب من بعد في العصر الحديث ، ولذلك أسباب كثيرة [illegible] بين نوع الحياة التي كان يحياها [illegible] الوسطى وبين نوع الحياة التي أصبحنا [illegible] هذه الأسباب كذلك باختلافنا [illegible] في الأذواق الفنية وفي الجمال والحسارة ، وفي غير ذلك من الأمور التي من شأنها أن تحيد عن معالم الفن الفاضل ، أو من شأنها أن تدفع بالكثيرين من الباحثين إلى الغض من هذا المذهب الفني ، يفعلون ذلك ظلماً وعدواناً وتحيزاً وإسرافاً منهم على الحق والتاريخ .

أما أنا فشديد الإيمان بعظمة هذا الفن الفاضلي ، شديد الفتنة به أيضاً . أنظر إليه على أنه صورة من الصور الخليقة باسم الأدب أو الفن ، والأدب عند كثيرين من الناس وعندي نوع من الغذاء الروحي لا يقل في شأنه عما يستمتع به الناس أحياناً عند سماعهم للموسيقى بل عند استعظامهم لها ، أو حين يرون اللوحات الفنية الجميلة ، بل عند ما يقلبونها : وتلك قضية أحب أن أحدث القراء عنها إن شاء الله تعالى في فرصة مقبلة .

عبد اللطيف حمزة

إي نعم : في التأني السلامة

كتبت كلمة للأخ الأديب الأستاذ (قاف) نقداً لخبر حكاه الأستاذ عباس العقاد في بعض كتبه ، ونقدت طريقه وطريق أمثاله في السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي بالإثبات والنفي ، من غير دليل ولا حجة ، ونشر الأستاذ (قاف) كلمتي في العدد ٣٦٤ من الثقافة (١٨ يناير سنة ١٩٤٤) وعلق عليها برأيه فيما نقدت . فاسترحت لمرونته ، وكتب مقالاً طويلاً في العدد ٥٥١ من الرسالة (٢٤ يناير سنة ١٩٤٤) يدعي فيه أن الحقد عليه هو دافعي إلى النقد ، وأني تتبعت كتبه التي نشرها في العبقريات فلم أجد إلا هذه الغلطة الواحدة ، وإن كان لا يسلم بأنها غلطة

وأحب أن يعلم « الأستاذ عباس محمود العقاد » أن « أحمد بهجت شاكر » لا يحمل في قلبه ضغناً ولا حقداً على أحد من الناس ، كائناً من كان ، صغر أو كبر

وإنما أنا وحدي أكتب في العلم [illegible] لله وفي سبيل الله ؛ ومهما بلغ [illegible] وعمار بحث لنفسي من حدود

وبعد : فسنعود إلى ما نحن بسبيله من البحث العلمي في القصة التي رُوي ، والشعر الذي نُسب إلى عروة ، وإلى المصدر الذي أشار إليه في رده ، لنعرف مبلغ ما في قوله وروايته من قوة وضعف ، ومن صحة وبطلان .

فقد روى الكاتب هذه القصة ثلاث مرات ، نحكيها عنه بلفظها أولاً ، ثم نذكر المصدر الذي أشار إليه ، ثم ما رأينا في مصادر أخر .

قال في كتاب «عبقرية الصديق» ص ٢٠٩ — ٢١٠ ما نصه بلفظه : « فمن ذلك أنه كان عليه السلام يصلح نعله في يوم قائظ فتندى جبينه وتعدر العرق على خده ، وهي تلحظه من قريب وكأن بها وجداً عليه ؛ فسألها : ماذا دهاك ؟ فقالت : لو رآك الشاعر لكنت المعني بقوله يا رسول الله . فعاد يسألها : أي قوله ؟ فأجابته : حين يقول :

فلو سمعوا في مصر أوصاف خده
لما بذلوا في مهر يوسف من نقد
أتوا في رأيتا لو رأين جبينه
لآثرن بالقطع القلوب على الأيدي

فقام النبي إليها يقبل ما بين عينيها ، ويقول لها : سرتني يا عائشة سرك الله » .

وأعترف للأستاذ العقاد وللقارئين الكرام أني قرأتها في ذلك الكتاب عقيب صدوره ، فلم ألق لنقدها بالاً ، وإن وقع في نفسي إذ ذاك أنها تشبه ما قرأ من الأحاديث الموضوعة ، بما يدركه عقل رجل اشتغل بعلوم الحديث أكثر من ثلاثين سنة ، وصارت له فيها فطرة خاصة ، وملكة غالبة ، يفقهها أهل العلم .

ثم رأيته أعادها بشكل آخر في كتاب « الصديقة » [illegible] ص ٥٣ فقال : « وكانت تحفظ من شعر عروة [illegible] نفسه وتسوق الشاهد منه في موقعه ، كما قالت [illegible] عليه السلام يذكر عرقاً في يوم قائظ وقد [illegible] : لو رآك عروة لكنت المعني بقوله ... » [illegible] ذكر البيتين ، ولكنه ذكر في الأول كلمة « سوم » على الصواب بدل كلمة « سور » التي هي خطأ مطبعي واضح ، وذكر في البيت الثاني كلمة « لواهي » بدل « لواهي » ، ولست أدري أيتهما في روايته أصل وأيتهما تحريف . ثم عاد إليها في الكتاب نفسه ص ٧١ فقال : « وتقدم أنها رأته في يوم قائظ وقد توهج خداه فقال تمثل بكلام عروة بن الزبير ... » وأعاد البيتين . فحين قرأت هذا مع ذكر عروة لفتنا نظري الخطأ الواضح البديهي ، إذ لا يجهل أحد ممن يعرف رواة الحديث أن عروة بن الزبير من التابعين وليس من الصحابة ، فمن المحال عقلاً أن يكون له شعر في حياة رسول الله تنشده إياه عائشة ، إذ لم يكن وُجد بعدُ ، سواء أصحت نسبة الشعر إليه أم بطلت . فبحثتُ وحققتُ نقدي .

وأعترف للأستاذ العقاد مرة أخرى أني لم أراجع « شرح الشمائل للعلامة محمد بن قاسم جسوس » حينذاك ،

لأني أسقطه من حسابي دائماً في الراجمة ، وأعرف قيمته العلمية ، ولكني راجعت فيها راجعت «شرح الشمائل» ؟ لعالم المحدث الحقيق العلامة «مُلا على القاري» ؟ ! ؟

ولرجوعي إلى هذا المصدر الذي طار به الأستاذ فرحاً قصة صغيرة : ففي يوم الجمعة ٢١ يناير سنة ١٩٤٤ وافق الأخ محمد أفندي فؤاد عبد الباقي ، وفيما جرى بيننا من الحديث سألني عن شروح «سنن الترمذي» فذكرت له ما حضرني منها : شرح ابن سيد الناس الذي أنه العراقي ، ولم يطبع ، وشرح القاضي أبي بكر بن العربي وقد طبع بمصر ، وشرح العلامة أبي الحسن السندي وقد طبع بالهند ، وهما عندي ومن مراجعي والحمد لله . ثم شرحي أنا على قسم منه ، وقد طبع منه جزآن يعرفهما الأخ محمد أفندي فؤاد ، فأعاد إلي القول أنه سأل عن شرح آخر معين اسمه «الحاسوس» ، فضحكت وفهمت ما يريد ، وأخبرته أنه لا يسمى «الحاسوس» وإنما هو «جسوس» ، وأنه ليس شرحاً على «سنن الترمذي» ، وإنما هو شرح على «شمائل الترمذي» [illegible] الكتاب فوجدنا النص الذي يشير [illegible] الأول ص ٣٩ ، وهو «ومما يناسب [illegible] فلو سمعوا في مصر أوصاف خده

لما بذلوا في صوم يوسف من نقد
وصحب زليخا لو رأين حبيبه
لآثرن بالقطع الفؤاد على الأيدي »

فأين من هذا النص القصة الطويلة التي حكى الأستاذ في كتابيه ؟ وأين ذكر عروة فيه ؟! فهذا جسوس ينشد بيتين على رواية غير رواية الأستاذ ، وهو أمر هين ، ولكنه يسهما لعائشة نفسها — وإن كان لا وشيء بهذا الكتاب ولا عما ينقله — ثم هو لا يذكر شيئاً قبلهما ولا بعدهما مما في الكتاب !

على أن هذا النص لا يفيد الكاتب شيئاً في مصدر القصة التي حكى ، ولا في نسبة الشعر إلى عروة ، ولا في موضع احتجاجه بالقصة والشعر على شيء معين ، وهو أن عائشة «كانت تحفظ من شعر عروة بن الزبير نفسه وتسوق الشاهد منه في موقعه» لأن ذكر البيتين في مصدره منسوبين إلى عائشة نفسها ، نسبة صحيحة أو باطلة ، لا يكون أبداً حجة على أن الشعر لعروة ، وعلى أن عائشة كانت تسوق الشاهد منه في موقعه ! ! ولا أدري ماذا يسمى في طرق البحث والنقد من يدعي قضية ثم إذا طولب بدليلها أتى بدليل نفيها أو ينقضها ؟

ولكن الأمانة العلمية توجب علي أن أخطر بالكاتب خطوة أخرى في سبيل البحث ، لعلها ترشده إلى ذكر المصدر الذي نقل منه ما نقل ، فأذكر له مصادر أخر لم يهتد إليها ، وإن كان ما سأذكر لا يؤيد دعواه ولا قصته . فقد نقل الحافظ السيوطي في شرح شواهد المغني ص ٨٢ — ٨٣ ما نصه .

«أخرج أبو نعيم في الدلائل والخطيب وابن عساكر [illegible] عن عائشة قالت : كنت قاعدة أغزل ، والنبي صلى الله عليه وسلم يخصف نعله ، فجعل جبينه يعرق ، وجعل عرقه يتولد نوراً ، فبهتُّ ، فقال : مالك بُهِتِّ ؟ [illegible] جبينك يعرق وجعل عرقك يتولد نوراً ، [illegible] لعلم أنك أحق بشعره حيث يقول :

ومبرأ من كل غبر حيضة
وفساد مرضعة وداء مغيل
وإذا نظرت إلى أسرة وجهه
برقت كبرق العارض المتهلل »

وهذه الرواية نقلها البغدادي في خزانة الأدب ج ٣ ص ٤٧٣ عن السيوطي ، وذكر قبل ذلك ص ٤٦٦ أن البيتين من أبيات لأبي كبير الهذلي خاصة أبي عام ، وفي الشعر لابن قتيبة ، وأنها من قصيدة طويلة في أشعار الهذليين وقد نقل بعض المؤلفين القصة أيضاً فاختصرها ولم يزد عليها ، فإن الاختصار إذا لم ينقص أصل المعنى جائز ، وأما الزيادة فلا تجوز ، لأنها في عرف المحدثين تكون من باب الوضع ، فنقلها عماد الدين يحيى بن أبي بكر الناصري في كتاب «بهجة المحافل» ج ٢ ص ١٨٦ بلفظ : «وقالت عائشة : بأبي وأمي أنت ، لو رآك الشاعر لعلم أنك أحق بقوله»

وذكر يحيى أبي بكير المدلي على الصواب ؛ وكذلك فعل الشيخ حسين عبد الله بن سلامة مفتي مجلس الشورى بمكة ، فنقلها كما نقلها العامري مختصرة ، في كتاب « حياة سيد العرب » المطبوع بجدة سنة ١٣٥٣ ج ٤ ص ٢٠٦ ، فأين هذه النصوص مما ذكر العقاد ؟

ولكن بقي بعد هذا كله شيء واحد ، هو أصل دعواه ، أين موضع عروة بن الزبير ، وأين موضع شعر عروة من هذه النصوص ؟ هنا حلقة مفقودة ، على الأستاذ العقاد أن يبحث عنها ويفيدنا فيها .

وأما ادعاء الكاتب أنه يستبعد أن يكون عروة ولد سنة ٢٣ أو بعدها ، فهذا إفساد للتاريخ العربي ، وما هو بتحقيق ، فإنه إذا صح أن تاريخ ولادة عروة خطأ فليس ذلك بنافعه في موضوعه ، فلئن كان الخطأ في سنة أو في عشر سنين ، كان عروة مولوداً بعد وفاة رسول الله ، بل لو كان الخطأ في عشرين سنة لكان عروة طفلا في حياة النبي ولم يكن شاعراً ، ولحفظ عائشة من شعره وأسوقه الشاهد منه في موقعه ، في حياة رسول الله [illegible]

وقد نسب أئمة الحديث ومؤرخو الإسلام في [illegible] تراجمهم وحصروا أسماءهم [illegible] من العز الغرير ، لا يشينه ولا ينقصه عصبية كاتب . ولم يذكر أحد منهم قط ، أن عروة كان صحابياً ، وإنما ذكروه في التابعين . بل إن الحافظ ابن حجر لم يذكره في الإصابة في الأطفال الذين ولدوا في حياة النبي عليه السلام .

وبعد فإن القول يطول لو شئنا نقض كل ما رد به الكاتب ، وليس على طول الجدال فائدة علمية ، فمن ذلك أعرضنا عنه .

وإن لنا الكلمة في نفيه حديث عائشة عن سنها حين زوجها رسول الله ، أو تخطئته إياها في معرفة سنها إذ ذاك ، ولعلنا نجد فرصة مواتية في نقض ما ذهب إليه ، إحقاقاً للحق ، ودفعاً عن الأحاديث الصحيحة ، إن شاء الله .

أحمد محمد شاكر

(الثقافة) هذا آخر ما ننشره في هذا الموضوع عرضاً الآراء المختلفة ليتجلى الحق

إعلان

وزارة المعارف العمومية

المراقبة العامة للتعليم الحر

تحتاج المدارس الحرة الابتدائية العامة والخاصة لتعيين وزارة المعارف إلى مدرسين لتدريس اللغة الانجليزية والمواد الأدبية فعلى راغبي الالتحاق بهذه الوظائف من حملة المؤهلات الفنية في التدريس أو الحاصلين على ليسانس الآداب أو بكالوريوس التجارة العليا [illegible] ما يعاد لهما تقديم طلباتهم إلى [illegible] المراقبة العامة للتعليم الحر في ميعاد لا يتجاوز ١٥ فبراير سنة ١٩٤٤ [illegible] ١٦٧ ع . ح وكل طلب [illegible] يلحق إليه ١٨٣٩

إدارة البلديات — قسم الميكانيكا

يطرح مجلس جرجا الخلي في المزايدة العامة بيع وابور مطافئ بخاري قائم قوة خمسة خيل صالح للعمل وعربة مركب عليها ذات عجلتين و ٢ سوستة وتحدد ظهر يوم ٢٤ فبراير سنة ١٩٤٤ موعداً لفتح المظاريف بالمجلس وتطلب الشروط والمواصفات من المجلس مجاناً على أن يحرر الطالب على ورقة دمغة فئة الثلاثين مليما ١٨٣٣

صحيفة النقد :

١ – سندباد عصرى و ٢ – سندباد قديم

الدكتور حسين فوزى

– ١ –

فى قرارة كل نفس إنسانية « سندباد » أو شعرة من « السندباد » ، ولو لم يطوف مثله فى بحار الأرض ويتعرض فى طوافه لشتى الأخطار !

فمن هو « السندباد البحرى » فى حقيقته ؟ إنه المخلوق الإنسانى الذى يناديه المجهول فيلبيه ، ويجذبه الخطر فيستجيب إليه ؟ ويتعرض للأهوال الشداد الجسام فى كل رحلة من رحلاته ، ثم يبلغ مأمنه بعد الإياس ، ويسترد ثروته بعد الفقدان . ولكن المجهول [illegible] إليه ، فما يلبث أن يروع الأمن ، ويستعمر الثروة ، ويعود إلى المجازفة من جديد ؛ وراء ذلك المجهول المحجوب ، وخلف هذا الخطر المصوب !

ذلك هو السندباد كما تصوره « ألف ليلة وليلة » ، فأية نفس إنسانية ليس فيها من هذا « السندباد » شعرة أو شعرات ؟ ! من منا لم يجذبه المجهول مرة أو مرات ، ولم يستهوه الخطر لحظة أو لحظات ، ولم يستعذب « المعرفة » ولو كلفته التضحية والتضحيات ؟ كل منا فيه من هذا « السندباد » شعرة ظاهرة أو كامنة ؛ ولكنها هى التى تربط الإنسانية بالعالم الأرفع ، عالم « المعرفة » فى عليين .

وكم من « سندباد » ظاهر قاد كولمبوس ، وفاسكودى جاما ، وماجلان ، وابن بطوطة ، وسواهم ؟ وكم من « سندباد » خفى قاد العلماء والمخترعين إلى آلاتهم ومعاملهم ، وقاد الفلاسفة والفنانين إلى مقامراتهم الفكرية والوجدانية ، وقاد المتصوفة والعباد إلى شطحاتهم وسبحاتهم ؟

إنه « سندباد » واحد تتعدد مظاهره وتوازعه فى شتى النفوس ، أو « سندبادات » كثيرة موزعة فى هذه النفوس ، التى تركب الخطر وتستلذ المجازفة ، وهى تلقى بوعيها كله أو بعضه إلى ذلك النداء السحرى ، نداء المجهول الذى يهتف بها من هناك ...

***

والدكتور « حسين فوزى » هو « سندبادنا » اليوم ! وهو رجل ندب لرحلة علمية فى البحر الأحمر والمحيط الهندى ضمن بعثة عالمية لدراسة أحياء البحر والمحيط ، وقد طوّف — مع البعثة — على باخرة مصرية طيلة تسعة أشهر ، فى البحر والبر ، فى الجزر والقفارة ، وزار معابد الهند وسيلان وسواها من الجزر المنثورة فى المحيط .

ولحسن الحظ كان « الإنسان » فى هذا الرجل أكبر من [illegible] الذى ندب لعمل رسمى ، وأكبر من العالم [illegible] . كان « فناناً » فلم يمنع هذه الأخيرة [illegible] فى الدراسة العلمية البحتة ؛ بل أدى واجبه ثم بقيت فى نفسه بقية لما هو أكبر من هذه الدراسة وأبقى ؛ وعادت البعثة ومل" وطابها تجاربها ومعلوماتها ودراساتها ؛ ثم عاد هو ومل" وطابه الخاص ملاحظاته الإنسانية ، وانفعالاته الوجدانية ، واستجاباته العاطفية ، وتجاربه النفسية ، فأودع ذلك كله كتابه « سندباد عصرى » الذى نتحدث عنه اليوم .

يقع هذا الكتاب فى ٢٨٣ صفحة من القطع المتوسط ، مقسمة إلى أربعة أقسام « عبث . وصور . وجد . ومشاعر » وتحت كل قسم من هذه الأقسام الأربعة فصول يجمعها العنوان .

وخلف جميع العنوانات والفصول يطالعك إنسان حى الوجدان ، متوفر الحس ، مفتوح الحواس ، ينظر ، وينفعل ، ويستجيب ، وتشترك ثقافته العلمية ، وقراءاته الأدبية ، وتجاربه الفنية ، فى تلوين ما ترى عينه من

ARCHIVE
http://archive.sakhrit.com

مناظر ، وما يجيش فى نفسه من أحاسيس ، وما يصدر عنه من ملاحظات ؟ ولا يعوزك أن تدع ريشة الفنان ، تسجل هذا كله فى بساطة ويسر ووضوح ، وبلا تكلف إلا فى النادر ، وبلغة سهلة صحيحة إلا فى مواضع قليلة لم يكن من العسير تحرى الدقة فيها ، وكان من الخير تحريها .

وليس من الضرورى أن توافق « السندباد المصرى » فى آرائه وأحاسيسه واتجاهاته لتؤدى له هذه الشهادة ، فنحن — على العكس — نخالفه فى أساس اتجاهه الذى يعلن عنه « إهداؤه » فى صدر الكتاب حين يقول :

« درجت على حب الغرب ، والإعجاب بحضارة الغرب ، وقضيت أهم أدوار التكوين من عمرى فى أوربا ، فتمكنت أواصر حبى ، وتقوت دعائم إعجابى ، فلما ذهبت إلى الشرق ، عدت إلى بلادى وقد استحال الحب والإعجاب إيماناً بكل ما هو غربى » .

نحن نخالفه فى هذا « الإيمان بكل ما هو غربى » وفى زرايته على الشرق وعاداته وأساطيره ودياناته (عدا الإسلامية والمسيحية) ، وسنناقش منه هذا الاتجاه ولكننا — مع هذا — يعجبنا فيه الإنسان الحى الوجدان ، والفنان المفتوح العين والحس والضمير ، وإنه لحسبك أن تجد « الإنسان » فى أى مخلوق ، ثم ليكن له بعد ذلك ما يكون من الآراء والاتجاهات ، فستجد عنده مادة إنسانية تستحق العناية والاهتمام . وهذا هو المطلوب — قبل كل شىء — فى كتاب يقرؤه الناس فى حدود « الأدب الخفيف » الذى يمثله هذا الكتاب .

وأنت تخالف « السندباد المصرى » أو توافقه فى اتجاهاته العامة ، ولكنك ستعجب به ، وهو يحدثك عن « مشمشة » قطة السفينة ، حديث الإنسان العارف بقدر الحياة فيشعرك بالتعاطف الإنسانى بينه وبينها ، هذه « المشمشة » التى « عادت إلى مصر ضمن من عادوا إليها بعد أن طوفت معهم تسعة أشهر فى طول المحيط الهندى وعرضه ، ونشرت صورتها على صفحات الجرائد ، فلم تزدها الشهرة خيلاء على خيلاء ، ولم تزدها رؤية الأمصار زوة أو خيرة ، بل ولم تمكنها هذه الحياة من انتقاء عريس صالح بين هررة سيلان أو قبط زنجبار أو سنابر الهند . عادت إلى مسقط رأسها فى السويس عذراء ذهبية الشعر أوفت على سن الزواج ، وقد غادرتها طفلة فى لون الحنا » !

أو حين يقف بك فى هذه السفينة نفسها بعد انتهاء الرحلة وتفرق الركب وخواء المكان ، فيحدثك حديث الشاعر الذى يخلع الحياة على الجماد وعلى الذكريات فتنبض وتتحرك وتستجيب .

« لقد عاد كل منهم إلى وطنه وعمله ، وعادت سفينتنا فى نفوسهم ذكرى يزيدها الزمن اتلافاً ، ولكنهم تركونى هنا وحدى ، كالشاعر البدوى ، أبكى فوق الدمن ، وأستبكى الرائح والغادى ! . تركونى أحوس خلال هذه القمرات والمعامل ، فتتألب على أشباح ذكراهم حتى لأخال نفسى مصعداً بين الأشباح .

« إنه لحزن السفينة ! إنه أيها الجواد الأشهب !

« هل قدر لنا أن نبوء بحمل الذكرى ؟ أو أننا سوف نعود سويا إلى خوض البحار النائية ، حيث الموج اصطخاب وهدير ، والإعصار صرير وصفير ؟ » .

أو حين يتحدث عن « حياة البحار » فينقلك عقلا إلى جو هذه الحياة ، أو حين يقف بك على « متن الزعيم » فى سيشل فتحس بنبضات القلب البشرى ، وخفقات القلب الإنسانى تلتقيان فى خلال الكلمات . أو حين يتحدث عن « غادة مماسا » فى فصل « لياليات » فتلتقى بالفنان الحى الذى يعبد الحياة فى أجمل أوضاعها . . . فى جسم فتاة مكتمل جميل ، تزينه الأنوثة ويحمله الحياء ، ويرفعه الاحترام . أو حين تقف أمام تمثال « بوذا » فيبدو لك الفكر الحر الذى يستروح فى « البوذية » شذا الحرية والبساطة والسماحة ، بعد ما كاد يختنق تحت كابوس القيود والتعقيد والتشدد فى « الهندوسية » التى تحيفه

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

وتفزعه وتطلقه ساخطاً على الشرق كله في بعض الأحيان !

* * *

وهنا يصل بنا الحديث إلى مفرق الطريق بيننا وبين « السندباد » !

أنا لا أعرف المؤلف ، ولم أره ، ولم أشهد صورته كذلك ، ولكني أستطيع أن أستشف من كتابه أنه فنان شديد الحساسية عصبي المزاج . ومن عادة هذا الصنف من الناس أن تستغرقه اللحظة الحاضرة ، وأن تستفزه الشاهد المثيرة ، وأن ينزع من الضغط والسكينة ، وأن تمتد ثورته من طرف الشيء إلى بقية الأطراف

هذا الفنان الشديد الحساسية العصبي المزاج « قضى أهم أدوار التكوين من عمره في أوربا » فبهرته الأضواء ، وأعجبته الحيوية ، وراقه النشاط ، وملأه الانطلاق . ثم « ذهب إلى الشرق » ، وإلى الهند بوجه خاص ، فالتقى هناك بالوجه الثاني للدرهم ! الزهد والصوفية ، والسلبية والسكون ، والسكينة والحرمان ، والوراثة والقناعة ... وهان كل ذلك ، لولا أن الحياة الاجتماعية بدت له أبشع الصور ، وأحط الدركات : العري والجوع والقذارة وظلم الطبقات : النجاسة للمنبوذين ، والتقديس للبراهمة ... إلى آخر المناسك والتقاليد والأوضاع ... وبعد ذلك كله الخوف الديني المؤثر في المعتقدات حول تناسخ الأرواح ، وما تلقاه في أطوار التناسخ من العذاب للتكفير عن السيئات ...

لم يكن هناك مفر بعد هذا كله — لمثل صاحبنا السندباد — من السخط على هذا الشرق التاعس ، والمقلع من أشباح الخوف الكامنة في هذه المعتقدات . ومن « الإعلان بكل ما هو غربي » كما يقول في إهداء الكتاب

فإذا شاهد راقصة في كراتشي « ترقص رقصاً توقيعياً لافن فيه » صاح : « جليلة هي هذا الشرق الطويل العريض الفارغ . هي تلك الشعوب التي ما زالت تفكر وتحس بإحساس القرون الوسطى ، وتصر على حسبان بواقي حضارتها البائدة لا ملكاً للتاريخ والتاحف بل أداة للحياة حتى في القرن العشرين » !

وإذا شاهد صخرة « ما هابالي بورام » وقد نحت فيها فنان شرقي تشخيصاً لأسطورة « نهر الكنج المقدس وقد أقبلت الآلهة والحيوانات من كل فج لتشهد ميلاد النبع المقدس في صوفية وخشوع حمل يقول :

« لو أن فناناً إغريقياً أعمل أزميله في هذه الصخرة تحت شمس « أتيكا » ! ويحي لقد أفسدت الصورة التي طبعتها في ذاكرتي « ما هابالي بورام » وأفقدتها كل معانيها في نفسي . فلم يكن الإغريقي ليصور نبعاً مقدساً ، بل كان في الأغلب ممثلاً « أرفيوس » في الشق الأوسط وهو يوقع على قيثاره العجب وحوله الإنس والجن خاشعة ... الخ » .

وإذا شاهد بدنا هندياً يمثل الروح الهندية المتسامحة التي تنهى عن الصراع على الحقوق الخاصة إلى الزهد في أعراض الدنيا ، والاتجاه إلى عبادة الروح الأعظم قال : « أدركت أخيراً [illegible] في بعض الحركات الروحية حين تدخل ميدان الحياة العملية »

وإذا سمع زميله الإنجليزي يقول عن « النيرفانا » أي الفناء في الروح الأعظم — وهو الفناء التي يطمح إليها الهندي من وراء حرمانه وآلامه : « دعنا من هذا فلا قبل لي بهذا الهجس ونلك الشعوذة يا عم حسن » لم يجد في نفسه أية حماسة للرد على الكلام . وهكذا وهكذا مما قد يبالغ فيه فيصل إلى حد الزراية والسخط الشديدين على الروح الشرقية بوجه عام .

ومهما افترضنا للسندباد من الأعذار في قسوة الأوضاع الاجتماعية والمظاهر البائسة التي شاهدها في الهند فقد كنا نرجو أن يكون أوسع أفقاً وأكثر عطفاً وأعمق اتصالاً بروح الشرق الكامنة وراء هذه المظاهر والأوضاع ، الروح الصوفية المتسامحة المشرقة بنور الإيمان

ونحن لا ندعو إلى الروحانية السلبية ، ولكننا ندعو فقط إلى فهمها والعطف عليها وتقديرها من الوجهة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الإنسانية . فالغربي معذور حين يغلق حسه وفهمه دون روح الشرق الأصيلة ، أما الشرق فلا عذر له في هذا الإغلاق .

إنه يقول عن لوحة الكنيسة المقدس : « لم يكن الإغريقي ليصور نبياً مقدساً . . . الخ » أجل ! وهذا هو مفرق الطريق بين الشرق والغرب . في الشرق قداسة تمت إلى القوة العظمى المجهولة ، وفي الغرب جمال يمت إلى المشهود الحاضر المحسوس . وليس لي أن أفضل هذا أو ذاك ، فكلاهما جانب من جوانب النفس الإنسانية الكبيرة التي تهش لكليهما على السواء ، إن لم تؤثر في حسابها الروحي والفني جانب المجهول على جانب المشهود .

وهو يسخر بقصيدة « التيرفانا » كسخرية زميله الإنجليزي الذي يقول : ما كنت أحسب أن دينا يعد بنعمة الفناء ! ووجه الخطأ هو اعتبار « التيرفانا » فناء ، إنها كذلك في نظر الغربي الذي يصارع الطبيعة ويعزل عنها ، وأما الهندي الذي يحس بنفسه ذرة منسجمة في الطبيعة ويعدها أما رؤوما فيرى في فنائه في القوة العظمى بعثاً وتمام وخلود وعلينا أن نفهم هذا ونعطف عليه ولا نراه بعين الغربيين . وهو يبدو في أرفع صورة في « سادهانا تاجور » فلنقف خشعا أمام هذا السمو الإلهي ولو بعض لحظات ! ! !

وهكذا يجب أن نجاوز مظاهر الجيل وأوضاع الاجتماع ، لننفذ إلى قلب الشرق وإنا لواجدون فيه كثيرا من الكنوز الروحية التي تنقذنا من قسوة الحضارة الآلية التي تخنق أنفاس الإنسانية في هذا الزمان . الحضارة الآلية التي لا قلب لها ولا ضمير ، والتي تنسجم في أصولها مع روح الغرب كل الانسجام .

أريد الدكتور أن أضرب له مثلا على سطحية الروحانية في نفوس الغربيين المعاصرين ومحولة القداسة في قلوبهم ؟ إنني إذن أدعوه ليعاود في كتابه نفسه قراءة صلاة الراهب الإنجليكاني بالبعثة ، هذه الصلاة التي سبقتها الكؤوس ثم أعد الكاهن ليكون مكانا للصلاة حتى إذا انتهت عاد الصلون للكؤوس ... مع ما أحيطت به الصلاة من رسميات ... فقد انقلبت كل شيء حتى الوجدانيات إلى رسميات !

وأخيراً فإنها مرة واحدة هي التي ارتفع فيها المؤلف إلى القمة في « شجرة اليهودي المقدسة » وهو يقف أمام الزنجي عابد « اليوذا » فيحترم عقيدته التي أحالته روحا علوية وهو الزنجي الذي يقوم بعمل الحمار . . . لقد كان « السندباد » « هنا » إنساناً كبيراً يستحق الإجلال .

* * *

ثم أكرر ما قلته من أن الاتفاق أو الاختلاف لا يغير شيئاً من الحكم على قيمة الكتاب ، وهو كتاب يضاف إلى المكتبة العربية في حفاوة وإعزاز في مقدمة الكتب المتفقة بلا جدال .

سيد قطب

قريباً

ألف ليلة وليلة

بقلم السيدة سهير القلماوي

دراسة وتحليل

لأشهر كتاب في القصص الشعبي

الثمن ١٠٠ عدا البريد

يطلب من

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

ومن فرعها بالإسكندرية

س . ت : ٢٩٥٤٢